مجموعة قصصية قصيرة

عرب العطيات

عماد علي حسن



مجموعة قصصية

[عرب العطيات]

[عمار علي حسن]

تَجَلّي يا ملامحَ مُحمّد

(إلى شعبان شاكر)

الكتاب بدء ترقيم من "١٣"
من اصل الكتاب

١

تجلى يا مـلامح مـحـمـد! أغـوص فى تلافـيف الذاكـرة كى أصطادها لكنها تزوغ منى وتنزوى فى أركان النسيان .. أعيد الكرة فيتشكل أمامى وجه غريب نصفه لمحمد والآخر عاجز عن الالتئام. يتجاور النصفان لكن لا يشكلان الوجه، أحاول وأحاول فتتداعى الصورة شيئا فشيئا، وقبل أن تثبت معالمها يضيع النصفان ويصبح محمد مبهما غريبا رغم أنه جزء منى، ولدتنا أم واحدة والأب رجل واحد.

هو صبى فى الخامسة عشرة من عمره، لم أره منذ شهور، لكننى أريد أن أراه منذ سنين حين كان طفلا. وها أنا مستلق فى وقدة الظهر أستظل بالمدافع، حولى الجنود يجهزون الذخائر وينظفون المعدات، والصحراء ممتدة لا نهاية لها. تنطق بوعر المسافات بينى وبين محمد .. هنا فى البعيد الأصفر المرقط

بخضرة الأحراش المتناثرة تبتسم شفتاه وتتهادى، ها هى تقترب .. تقترب... والوجه يستدير ويكاد أن يقبض على الملامح، وأكاد أمسكها، ثم لا تلبث أن تضيع ويهرب محمد.

تتلاحق الأيام ومع مغرب كل شمس تحترق الملامح بنار الشفق وتذوب فى عتمة الليل. أحيانا تأتينى فى الأحلام لتملأ ساعاتها فرحًا، تجىء أيام طفولتك، وألاحقك، وتجرى نحو الباب إلى الشارع، فى هدأة العصر أنطلق بك إلى الحقل وأنت تصرخ «تعلب تعلب .. فات فات» أقاسمك الأهازيج مرددا «وفى ديله .. سبع لفات». هناك تحت السدرة العتيقة نجلس، أشوى لك الذرة وأصطفى الحب الطرى فيمضغه لؤلؤك فى تلذذ متتابع. يجن الليل فأغرس فيك نبل الحكايات عن البطولة والتضحية، أبسط الكلام وأنت تلتهم الحروف، تسأل فتأتيك الإجابة حتى يغمض جفنك وتروح فى سبات عميق. يغلبنى النعاس فننام متعانقين ..

أنتفض مذعورًا على صراخ سرينة الإنذار. أنا ضابط المدفعية معي صفارة فأرد. تزعق فى آذان النيام فيتلاحق دبيب هرولة الجنود إلى المدافع. يأتينى صوت قائد الكتيبة عبر الهاتف غارقًا فى التوجس :

- إسرائيل هجمت علينا ..

تلجمني العبارة لكنني أستنطقها للجنود: الحالة قصوى.. قصوى ..
وبين الجملتين ينتحر الحلم وتنضيع ملامحك تماما، تماما يا محمد.

٢

سماء تنطق باللهب وأرض فارقها الجنود. كل الكتائب حولنا دمرت إلا سريتنا، سرية مدفعية مضادة للطائرات تبدو كزائدة دودية في جسد إحدى كتائب الصواريخ .. لم ينسها الأعداء في زخم المعارك ولكن غلالة النار التي صنعتها مدافعها اليقظة جعلت طائرته تتفادها وتفر بعيداً عنها. عشرون جندياً مرابطون فوق أربعة مدافع وآخر يستطلع الأرض والفضاء... أنا أقف في مركز إدارة النيران بمنتصف الموقع وعلى يميني تقف أنت ياشعبان تردد الأوامر للجنود. تبدو وديعا كيمامة، ضعيفا كفراشة في رياح عاتية، لكنك تقوى على جسمك النحيل بإرادة صلبة.

دنا المغرب واحمرت مياه القناة باللهب والشفق، وراحت النواس تمارس طقوسها اليومية.. تتجمع سربا كبيراً وترفرف، تتنارثر وتشكل صورا للخلاص.. تعلو فتنتصب الهامات إليها، تقترب فتترامى الأبصار وتتابعها. تتقدم نحو عين الشمس وهي تلملم أشعتها الصفراء الذابلة ووجهها يتضرج بحمرة المغيب. تبدو نمنمات حمراء ترتعش بين الأجنحة، تضيق وتتسع حتى ينبلج الاحمرار حين تعلو النوارس. كالسهم تمرق وتطعن بطن الفضاء، وتقاوم. راقت لك يا شعبان فكرة وأنت تتابع تحليقها ودورانها، حدجتني بنظرة خاطفة، وأعدت عينيك إلى الفضاء قائلاً:

– نتدرب عليها كأنها طائرات..

وعلى الفور صارت النوارس أهدافا كروكية سهلة لمدافعنا، يضبط الجنود تحركاتها فى تليسكوبات المدافع وتصرخ يا شعبان ورائى : هدف مستوى فى اتجاه ٥/ ١٢ اشتبك. ويتخيل الضارب أنه يضغط على بدال النيران ونرى جميعًا كأن الجو ملتهب والطائرات النوارس تتساقط كالذباب. يتسلل شىء من الفرح إلى النفوس التى أظمأتها الأحزان فتروى أملها بوهم يسرى فى فضاء النوارس المحلقة دون كلل فوق مدافعنا.

تبتسم ياشعبان فيروق سمارك ويتجمل بثنايا الطلع. تزم

شفتيك فى حزم وتقترب منى مهرولاً. تقف ثابتًا من حديد على قدم طرقت الأرض بشدة وأخرى ملتصقة بها، تتسطح يدك باتجاه وجهك وتصرخ :

– تمام يا أفندم .. تم تدمير كل طائرات العدو.. ذخيرة تمام ..أفراد تمام.. معدات تمام تمام..

محملقا وثابتًا أواجهك، أرد التحية العسكرية ويغوص ناظرى فى صفحة وجهك فأراه يبتعد عنى رويداً رويدًا وكأنه خيال على مرمى البصر، معلق فوق الرمال وبين الأحراش وحشف الصخر فيبدو كوجه محمد تماما... تمامًا..

٣

صوت انفجار كاسح دوى فجأة، كتم صوت المدافع وامتلأ الجو بالغبار. شعرت أن رجلى أثقل من جبل، تحسستها حتى وصلت يدى إلى الركبة ثم انزلقت إلى التراب وندت عنى آهة لم

أعـرف كنهـهـا .. لم أبك ولم أضـحك ولم أصـرخ بل وجـمت وتطلعت هناك فى القـريب المكدر بذرات الرمل والدخـان، فـإذا بشبح صغير راح يتجلى مع رحيل الغبش حتى ظهر بوضوح. وكنت أنت ياشعبان، تعافر حتى اعتدلت وملت نحوى وكشفت عن جرحى، شدة الحزن لم تفسح للدموع الأبواب فتحجر الألم فى عينيك. جثوت على ركبتيك ورحت تقبل قدمى المقطوعة. احتضنتها كأنها وليدك وذاب صمتك فى صمت المكان. كان منذ دقائق مليئا باللغط، نداءات حماسية وحكايات وتعليمات. ها هو صار مواتًا. أشلاء ملتصقة ببقايا المدافع، ودماء رقشت الرمال. لم يبقى سوانا، أنا عاجز جريح وأنت مزقتك الفجيعة. كنا نلهث والعطش يحرق جوفينا. الزمزمية الوحيدة التى كنا نتقاسم رشفاتها انتهت قبل الضربة إلى الجندى محمود السيد. هرولت ياشعبان نحو الدشمة المنهارة وفتشت عن محمود ولأول مرة يمزق صراخك صمت الموت.

آهة زعقة دفعتنى للزحف نحوك، كنت مغمض العينين تحاول أن تنزع الزمزمية من صميم قلب محمود وهو مطروح على ظهره، مشروخ لنصفين، والزمزمية مغروسة فى اللحم. الفوهة

تستقبل بعض الدماء المتسرسبة، غمست يدك فى الصدر المبتور ودفعتها من بين شظايا العظم.

قربت مني الماء الدم، كان ساخنًا مملحًا، ارتشفت قطرات ورددتها إليك لكنك كنت مشغولا بتمزيق جاكتة أفرولك، مزعتها ثلاثة أجزاء وربطت رجلى. تبكى وتضغط لتمنع تدفق الدم. لم يتجلط فخلعت فانلتك الداخلية وربطت رباطا جديدًا ولففت الباقى فربما يحتاج الجرح إلى ضمادات أخرى. استجمعت كل قوتك وأنا أساعدك، رفعتنى عن الأرض، تساندت عليك وصار لى ثلاثة أقدام تغالب وعورة الصحراء.

٤

تبتلعنا الوهاد وتلفظنا إلى ربا جبل «كسفريت»[٢] وشمس الضحى تفضح خطانا صوب الغرب. جؤارى المكتوم بذبحك ياشعبان ويسكب دموعك مدرارا.. تتقاطر على الرمل وتخالط

دمى المسفوح. تربّت عجزى فيزداد إصرارى على السير.

ها هى الجثث منثورة على التراب عشرات في تتابع، بيادات تحتضن أقداما منفصلة عن أجسادها، أجساد انشطرت وفقدت هويتها تمامًا، رؤوس تبحث عن أجسام لتلتئم، أيدٍ مقطوعة منكسة، مفرودة على الحصى والرمل، أو مقبوضة تعض على الرغبة فى الحياة، أو تمسك جزءًا من سلاح. علب أغذية محفوظة مبعثرة يمينا ويسارا. أجزاء من بنادق ومدافع وجنازير دبابات وأسلاك شائكة وأجهزة إشارية ترقب الخواء. فوارغ ذخيرة ورصاص يبحث عن مقاتل.

وما جعلنا ننتحب بحرقة فهى تلك اليد المقطوعة المحزمة بساعة مذهبة، مقبوضة إلا أصبع السبابة كان ممدودًا على آخره يشكل الحرف الأخير من الكلمة المحفورة على سطح الرمل الأملس، كلمة ينقصها حرف فكان هو حرفها، يتدلى الأصبع فيصبح راءً تلتحق بالألف واللام والثاء والألف الأخيرة المهموزة، وقرأت ياشعبان وأنت تتلعثم «الثأر»، وملت أنا على الرمال فرفعت الأصبع وأضفت الحرف الناقص، ثم أتبعته بكلمة «قريب» وقرأنا سويا «الثأر قريب». نهضنا محملين بحمية جعلتنا نعض

على نواجذنا فى غيظ. أدرنا عنقينا إلى الشرق حيث مياه البحيرات المرة، بدت كندف ثلج مختلفة وسط اصفرار المدى.

رحنا نستحث الخطى متسلقين ثنيات الصخر بحثا عن مكان للاختباء. لم تتهاد مغارة أو يبرز نتوء يسمح بالتوارى وبقينا نهبا للعراء. حلقانا عصاتان تلهبان قدرتنا على السير. كانت شفتاك ياشعبان مقددتين تنطقان بظمأ قاس، ارتسم على سمار وجهك وبدا فى لهاثك الجاف وأنت تساعدنى على تجاوز حجر امتشق يعترض خطانا الوئيدة. من ضحى إلى ظهر أدخلنا فى عصر كسير، راح يتداعى ويلقى فى الغرب جمرة نازفة لشمس تطاردها فحمة الليل، تسقط وتسود كل الطرق المؤدية للهروب.

٥

رجلى فى فم كلب مسعور. أحبس الصراخ خوفا من أن يحمله سكون الليل إلى آذان الأعداء فتخرج أنات متقطعة تذوب

فى فراغ الليل والصحراء. لم نعد نسمع سوى نباح الكلاب الضالة الهاربة بعد تدمير الكتائب الأمامية، بين الحين والآخر نسمع أصواتها وهى تتقافز صوب الغرب، تجرى وتسبقنا وتصبح سرعتها وحريتها حلما لا نطاوله.

انتهينا إلى أخدود غائر بين صخرتين عاليتين، ودلفنا للداخل وأسندنا ظهرينا المكدودين على أشواك الصخر المتراصة فى تتابع عشوائى. تولد الصرخات وتموت وتتوهج ألسنة اللهب المبعثرة ثم تخبو فى المدى..

– شعبان ..

– أفندم ..

– اذهب أنت وانج بنفسك، إننى لن أستطيع إكمال الطريق.

– لا يمكن أبدا ..

– سيلحقنا جنود العدو .. وليدت واحد فقط ..

– نموت سويا ..

– المسافة طويلة وسيطلع النهار علينا ونكون صيدا سهلا.

– سنحاول أن نسرع ..

– دعني واذهب .. أرجوك ..

- سنذهب سويا ..

تحاملنا من جديد. عكاز أنت وأنا عين ترقب الطريق للأمام. تنبلج الرؤية قليـلا مع بزوغ القـمـر. يتـسلل من طيـات الظلام فتتضح مسارب الهروب ..

٦

تعثرنا فى سلك شائك يبدو ممتداً إلى مكان بعيد، يحتضن أطلال بنايات متداعية. تجاوزناه إلى الداخل وتفرسنا معالم الموت حولنا. الجثث وبقايا الأطعمة والأسلحة. قلنا فى صوت واحد :

- هنا كانت كتيبة لنا ..

وقبل أن نزيد الحزن حزنا ملأ المكان ضوء ساطع. استدرنا بسرعة فإذا بكشافين يتسطحان فوق الأرض لعربة صغيرة تتقدم نحونا.

– العدو ؟!!

– نعم .. العدو ..

– والعمل؟

– انبطح أرضًا يا شعبان ..

ألصقنا جسدينا بالرمل وزحفنا نحو الجثث المكومة بالقرب منا، في لمح البصر أدخلنا الأرجل في الأرجل وغرفنا من أحشائهم ونزحنا من بقايا دمائهم ولطخنا وجهينا، ثم أدخلنا الأيدى في الأيدى. خبتت الأنفاس وأسبلت الأجفان وتوحدنا معهم في موت واحد..

اقتربت العربة وترجل أربعة جنود، داست علينا أحذية غليظة غليظة، توكزنا وتضربنا وتقلبنا يمنة ويسرة ولا حراك .. سمعنا همهمات لم نفهم معناها لكننا أدركنا أنهم يشككون في موتنا .. عادوا إلى الركل والضغط لكننا كنا مشبعين بموت الأصدقاء. بصقوا على كومتنا وانصرفوا، ثم انطلقت بهم العربة وشحيرها يمزق سكون الليل ويفرش هالات الضياء في الأفق المنظور. نهضنا ورائحة الموت تنبعث من روحينا .. هدأ وجيب صدرينا وتلاحقت الأنفاس تعوض كبتها المحموم وترتشف من طراوة الفجر هواء جديدا! يهز فينا خيط الأمل في الحياة.

٧

تكشفت معالم الطريق وعاد الظمأ يخمشنا بضراوة. ها هى على بعد أمتار منا زمزمية ناصعة البياض، تبرق فى شعاع البكور الأول. رأيتها يا شعبان فردت فى وجهك دماء الأمل. أما أنا فتوجست وقلت ربما تكون شركًا خداعيا ألقاه العدو لتهرول إليه فلول الظامئين على أنه ماء وما هو إلا الغام وقنابل. هممت لتحضرها لكننى أمسكت بك. لم أشرح لك السبب لكننى صرخت فيك بنبرة حادة :

– أنا سأحضرها.

– قدمك يا أفندم ..

– هذا أمر عسكرى .

– لكن ..

– نفذ الأوامر ..

– يا أفندم

- الأوامر ..

وكعادتك كنت مطيعا. تركتنى أزحف اليها وأنت ترقب ولا تدرى لماذا أنا نهرتك. بينى وبينها متر واحد. العين والقلب منقسمان حول مائها ونارها .. ها أنا أكاد المسها يا شعبان .. لمستها .. ها أنا أقبض عليها .. أقبض على انفجار هائل كان آخر ما سمعت فى تلك اللحظة. تناثرت أشلائى ولطخت الدماء ارتجافك فصار فزعًا واحمرت أطراف المكان .. وقفت أنت وقد ألجمتك الفجيعة. عيناك زائغتان وراء قطع اللحم المنثورة فى كل حدب وصوب .. ذاكرتك اختزلت تاريخنا سويا فى لمح البصر ..

.. ويداك ممدوتان تجمعان أشلائى صرخت فيك : أترك كل شيء ولا تحمل سوى القلب. كان حيا ينبض وصورتك مطبوعة فى صميمه، ولملمت كل اللحم وكومته فى تناسق وجلست تنتظر بعثى من جديد .. لم يحدث وطال نحيبك وانتظارك فخلعت ماتبقى لديك من ملابس .. وكما تهدهد الأم وليدها وضعت اللحم برفق وربطت فوهة أفرولك. حملتنى فوق ظهرك ورحت تخطو نحو الغرب ..

محمول أنا فوق ظهرك وعينى ترقب لك الطريق .. وهناك فى

الأفق تجلت ملامح محمد. كان يضحك ولؤلؤ الثنايا يبرق فى شمس الضحى. وقلت لك ياشعبان : سر فى اتجاه محمد تماما.. تماما..

٨

نعش شرود طائر يمرق بين بيوت الطمى فى قرية نائية، تحدب عليه زمر من أناس أوجعهم البكاء الحرور. يحوى قطعا من لحم مختلفة الأحجام ترفرف عليها روح طليقة. تغوص الروح فى زحام الوجوه لتلتقط وجه محمد، صبى ترفل فى مقتبل الشباب أنت . تسح دموعك على خديك مدرارا لكنك تكبت قروحك وتعض على أضراسك مغمغما : سأثأر لك يا أخى ..

واقتربت الروح منك وهمست فى أذنيك مؤيدة على قولك :

– إياك أن تنكسر ..

وتحت السدرة العتيقة تباطا النعش وتشبث بالظل، وها هى أيامنا الأولى تفرش حكاياها يا محمد، حبات الذرة الطرية وكفك الغض وأهازيجك المغردة .. طعم ولحن لا يموت يا محمد رغم

دوران الأيام. تدور تدور فيصير جسدى ترابا فى تراب. جسدك أنت ترويه الدموع وتسقيه ماءها الملح فيشتد ويستوى على ساقيك. أجيئك فى الاحلام وفى الذكريات وأهمس لك فى صحوك :

– إياك أن تنكسر ..

٩

– إياك أن تنكسر ..

قلتها زاعقة حماسية حين وجدتك يا محمد ترتدى الزى العسكرى. ألبستك كل ما كنت تنوى أن ترتديه، الأفرول والبيادة . صحبتك وأنت تؤدى طابور العبور فى ترعة المحمودية .. خرجت لك من لجاج المياه، من بين الشبج الأبيض المحيط بالمناطيد العابرة للضفة الأخرى. ومنطادك يمرق كالسهم، كنوارس شعبان المغربية ملت نحوك :

– لا تنس ..

فقلتَ لى فى ثقة متناهية :

– لم أنس قط ..

١٠

ذات ليل دامس كنت أدور فوق الصحراء، تناهت إلى سمعى أصوات مختلطة .. دبيب أرجل، شحير عربات، زمجرة دبابات، قرقعة أسلحة تجهز، كركبة مدافع تتقدم فى حذر، ذرات الغبار تبدو فى ألسنة ضوء تبرق على فترات متباعدة عبر أماكن لامتناهية، كل شىء كان يتم فى صمت. كل الوجوه يعلوها الترقب ... فى عز الظهر أقلعت الطائرات وحطم أزيزها سكون الصحراء .. نبضت القلوب وارتفع نبضها فى حناجر مكبرة، وتدافعت الأجساد تعبر إلى الخلاص. لهب فى لهب. هالات من النار والنور، وأرض امتلأت بالجنود. آلاف المناطيد كخلايا تنبض فى شريان القناة. طائرات العدو تأتى كالنوارس فترديها المدافع والصواريخ كالذباب .. ها هو الحلم تحقق ياشعبان «تم تدمير كل طائرات العدو» تسقط مهدلة الأجنحة فيجرى الجنود إليها كأنها لعبة فى أيدى أطفال أشقياء. يرمون بها ويتقاذفون

محتوياتها ويكبرون .. ويكبرون. الأرض تبرح وترتشف نبض الفاتحين وتسقيهم حلاوة الانتصار فتتسابق الأرواح نحو الضفة الأخرى ..

وسط العجيج والضجيج ثمة وجه لطفل صغير راح يولد من خصائص الرمل وحشف الصخر، يتهادى فى بحر الصفار. نصفان يتقاربان ويأتيان على مهل .. أمعنت النظر والعين مثبتة فى اتجاه الوجه فإذا بلؤلؤ الثنايا يبرق وحديد الرأس يهفهف فى ريح النصر .. يلتئم النصفان ويصيران وجها واحدا هو وجهك منذ سنين .... تماما تماما يا محمد.

يوليو ١٩٩٥م

---

(١) القصة الفائزة فى مسابقة القصة والحرب التى نظمتها الشئون المعنوية للقوات المسلحة بالتعاون مع جريدة أخبار الأدب. وقد نشرت ضمن كتاب صدر عن الهيئة العامة للكتاب ضم الثلاثين قصة التى فازت فى المسابقة.

(٢) جبل كسفريت يقع بالقرب من مدينة فايد بين مدينتى الإسماعيلية والسويس

شوارع الألم

(إلى الأستاذ أحمد طنطاوى)

الشوارع الممتدة فى لحمى عبدتها مشارط الطب الرخيص. من تحت القفص الصدرى مباشرة حتى فوق الفخذ الأيسر طريق يسع ثلاث عشرة غرزة متعرجة يصب فى ساحة الجسد، غائر قليلا يتوسط عشرات الندبات التى صنعتها إبر الجراحة. تطل عليه من الجانبين كواجهات بيوت الفقراء. فى الأسفل الأيسر التئام جرح قصير موارب، أسود كحارة غارقة فى ظلام كثيف. زائدتى الدودية كانت فرصة سانحة لتدريب أطباء الامتياز. بقروا البطن وتركوه يرتشف وجع العبور إلى شاطئ الالتئام.

لا شيء يهم ما دامت الملابس توارى هذه الشوارع المتقاطعة فلا تظهر ..

الفخذان سليمان، قصبة الساق اليسرى مفرطحة .. فى مباراة ساخنة لكرة القدم سمع العيال صراخا يلف أرجاء الملعب الترابى . حملونى فى صفار العصر الكسير إلى

مستشفى القرية المجاورة لقريتنا. جاء طبيب الامتياز فألبسها على حالها ثوبا ثقيلا من الجصّ الأبيض.

رحت أقشره رويداً رويداً من مرور الأيام وأنا فى شوق جارف لمعرفة الحال الذى آلت إليه ساقى.

.. لم أحزن حين رأيتها عريضة هابطة، فهى مدسوسة خلف الجورب والبنطلون، وما دامت الخطى مستقيمة لم تتعرج فلا شىء يهم ..

وثلاثة من أصابع القدم اليمنى نالت منهما أرجل العيال. الأول أعوج والثانى فقد ظفره إلى الأبد والثالث تراجع للخلف قليلاً وتدلى فى انكسار. والأصبع الأخير أحيانا يتقلب فى فم كلب مسعور ويوقظنى من النوم. أسحبه وأهدهده حتى يكف عن النباح. وحين أدسهم فى حذائى أشعر بالارتياح.

سامحت صغار الأطباء فى كل هذا لكننى حنقت عليهم فى ذلك النتوء البارز الممتد فوق بحيرة عينى اليمنى. مكشوفًا للعراء تراه كل العيون. يلاحقنى فى صورى الفوتغرافية وواجهات المحلات الزجاجية ويصفعنى فى مرآتى. فى زحام الأتوبيسات والأسواق وشوارع المدن الغربية يحيلنى إلى فئة اللصوص

والبلطجية فيتجنبى الناس متوجسين. أقرأه فى عيون زملائى وأصبر. يهرب صبرى فى النظرات الصامتة المتسائلة فى عيون كل حبيباتى اللائى عرفتهن على مدار السنين، كنت أجلس بجانبهن مواريا جسدى حتى يتمكنّ من تفرس ملامحى. يرمقن النتوء فى سرعة حين يكون وجهى مصافحًا لوجوههن. يطلن النظرات المتفحصة حين أكون مشغولا عنهن. يرتد بصرى إليهن خلسة فتتدلى عيونهن حاملات السؤال الذى لم تسأله واحدة منهن. وكلما هجرتنى إحداهن أجرى إلى المرآة وأعاتب النتوء بمرارة وأوجعه شكوى. وأحيانا أشفق عليه وأود لو أحتضنه وأفرغ بين جنباته كل عذابى ويبكى كلانا بين يدى الآخر.

المرأة الوحيدة التى حدثتنى عنه هى أمى. تمصمص شفتيها فى أسى وتقول :

– أنا المسئولة يابنى ..

– إنت يا أمه؟ ..

– أيوه يا حبيبى أنا ..

– وأنت ذنبك إيه

– مكنتش لازم أخرج فى الليلة دى ..

- معلهش اللى حصل حصل ..

- قدر ومكتوب ..

تحتضن وجهى بين راحتيها ثم تسنده إلى صدرها وتسرد على سمعى الحكاية. تقول إنهاكانت تحملنى فوق كتفيها ذاهبة إلى بيت جدى فى شارعنا الملفوف فى رداء الليل الأسود، وفجأة داست ظهر نعجة رابضة بجانب الحائط. انتفضت النعجة مذعورة فوقعت أمى فوقها وراحت تعدو بكل ما أوتيت من قوة فى عمق الظلام. انزلقت فارتطم رأسى الغض بجدار صلب وتدفق الصراخ. عادت بى أمى تتحسس الحوائط إلى بيتنا تلقفنى جدتى ملهوفة. طلبت من أمى أن تعطينى ثديها نحيت الثدى جانبا وتماديت فى زعيق بكل حرقة الأيام القادمة. ومع مرور الساعات أخذ الصراخ يفتر رويداً رويداً بينما الورم يعلو حثيثا ويستمد من صلابة الحائط تحجراً.

عيرنى العيال وأطلقوا على لقب «أبو لمونة». لم ينجح احتجاجى العنيف فى إسكاتهم. أملأ حجرى عن آخره بالطوب وأرميهم. أخطف عصا أبى الطويلة وألاحقهم. يفرون وهم يرددون «أبو لمونة أهوه.. أبو لمونة أهوه..» يكور بعضهم أصابعه

على هيئة ليمونة ويضحكون وأنا وراءهم بالطوب والعصا. أرجع البيت وأنظر إلى أمى صامتا. تقرأ فى عينى تعب مطاردة العيال ممزوجًا بسؤال ورغبة فى استئصال العار. تهمس فى أذن أبى وتأخذنى ذات صباح إلى مستشفى القرية المجاورة. يتحسس الطبيب الليمونة، فتنزلق فى يده رجراجة تحت الجلد. يرطن بالإنجليزية مع زميلته فيحفر فى ذاكرتى كلمة «ليبوما». يحمر وجهى غضبا فالكلمة تحك فى نفسى وتذكرنى بترديد العيال. تنغرس الحقنة فى النتوء بشدة وتفرغ مادة تدع رأسى ثقيلا كجبل. شىء حاد يسرق جلدى وينفلت الدم يبرقش وجهى وملابسى. تضع الطبيبة القطن حتى يتشرب بالحمرة تماما فتبدله وكلما أوغل المشرط رحيلا فى جسدى يحتد صراخى. تكور الطبيبة ملء يدها قطنا وتكتم سيل الشتائم تغلى محبوسة داخلى ثم تنقلت وراء العيال فى الشوارع،

والحبيبات ...،

والمرايا ...،

وكل أطباء الامتياز.

الجيزة ١٩٩٤م

أولاد الليل

(إلى جدى سيد أبو على)

من قيعان الآهات المتلاحقة الملهوفة من فرط الألم قال له بحروف ممرورة مرتشعة :هات لى رطل سمن بلدى واغليه.

راح يتفرس رأسه المشجوج. لمس بيده دمه المسكوب فى بحر ظلام القصب والليل. استحضر ملامحه الضائعة فى لجاج الدم وقال : الرجل غريب ..

وانقضى الطريق إلى البيت فى زحمة التساؤلات. طرق الباب فاستيقظت زوجته :

– هاتى رطل سمن يارشيدة.

– رطل سمن!!

– واغليه.

• • •

تعودت رشيدة ألا تسأله. لو تباطأت أوسعها سبا وضربا ولو استفهمت قال لها : لا تراجعينى يا امرأة .. ليس على وجه الأرض من يراجع «أبو خلف الله»..

وهذا الرجل الطويل الأسـمـر الملفـوف فى الجـرأة ورباطة الجأش لم يكن أمـامـه فى هذا الموقف سـوى أن يستجيب لطلب جريح القصب، فأبوخلف الله خفير زراعات القصب يهمه دائما أن يكسب ود اللصـوص، بـل يبـدو لأهل القـرية أنه واحـد مـنهم، وهو يعى تمامـا أن الجـريح لص نالت منه أيدى المدافـعين عن بهائمهم ومحاصيلهم.

• • •

خطف أبو خلف الله السمن المغلى وراح يسابق الليل. توغل فى مـتـاهات القـصب. أخـذ يتلمس طريقـه إلى أنات الجـريح المتقطعة التى كانت تخفت رويداً .. رويداً .. حين وصل إليه جثا على ركبتيه وقال له :

– السمن

– بارد

– برد فى الطريق.

وزحف اللص على جنبه وأبو خلف الله يساعده حتى اعتدل رأسه وقال :

– صب السمن فوق الجرح

– كله ؟

– نصفه .. وهات «الشال»

– حاضر.

سكب نصف السمن اطمأن إلى امتلاء الجرح حين راح يفيض على ضفتيه يسح على وجهه فيلعقه بلسانه، يمسح ويلعق. فك «الشال» تماما ولف الرأس المشروخ قال الجريح : قوى فعصر الشال فوق رأسه وهو يئن حتى تلاقت شطآن الجرح وانغلق على السمن.

• • •

راح أبو خلف الله يحضر للرجل كِسَر الخبز وقدور الماء وأحجار الكيف. لقمة بلقمة ورشفة برشفة. واستعراض لنوادر السرقة ومغامرات الليل البهيم .. يوم ويوم صار الرجلان صديقين.

• • •

ذات ليلة كان أبو خلف الله راجعا من عند الجريح. استوقفت حماره امرأة سمراء على خديها تتقلب شظايا الدمع. شفتاها المقددتان لوعة واحتراقا ترددان اسم جريح القصب. تابعها

حـتى تأكـد من الاسم الذى تنطقـه وأوصـاف الملامح وألوان الملابس. اقترب منها وحدجها بنظرة فاحصة وسألها :

- أنت تعرفينه ؟

- طبعًا.

- زوجك؟

- وأبو العيال.

قال لها إنه يعرف مكانه. لم تصدق. راح يعدد لها أوصافه وحكايا من نوادر لياليه أصاخت له السمع.. ناداها باسمها وذكر لها أسماء أولادها .. اطمأنت وتبعته.

غاصا معا فى غياهب القصب حتى وصلا إلى مكان الجريح. ما إن لمحته المرأة حتى خرت جالسة. راحت تسكب دموعها فوق جرحه وهو يسترد قدرته على الجلوس شيئا فشيئا حتى اعتدل. أسند رأسه إلى صدرها. تسربت أنفاسه المحمومة إلى جوعها إليه. ضمته فاستيقظت رجولته من سباتها. راعهما أن «أبو خلف الله» موجود. أرسل إليه الرجل نظرة خجلى فأدار لهما ظهره ومضى. لفهما السكون فضاجعها. اشتكت من غيابه ووجع انتظارها ثم أردفت :

- ربنا يتوب عليك.

- قادر كريم

• • •

مر يوم .. يومان .. أسبوع .. ثلاثة.. الرجل يأكل ما أعدته رشيدة فتسرى الشهوة فى دمائه فيلاحق زوجته. المرأة فى غمرة النشوة كادت أن تنسى العيال. لكن الاثنين أفاقا من سدورهما حين قال لهما أبو خلف الله ذات ليلة :

- صاحب القصب باعه

- والحل.

- سأستضيفك فى بيتى حتى يكتمل شفاؤك.

- عشت يا أبا الرجال .. لن أنسى لك هذا الجميل.

• • •

انتظروا حتى اسودت الدنيا . خرجوا من القصب متلمسين طريقا جانبيا . طرق أبو خلف الله الباب. فتحت رشيدة فى تناوم ودلفوا إلى قعر البيت. قال أبو خلف الله لزوجته : جهزى العشاء، ثم مال على الرجل وهمس فى أذنه : يلزمك استحمام؟! فرد قائلا: الجرح.. لكن أبو خلف الله قاطعه: اغسل جسمك فقط

واترك رأسك.

هشم قطعتين من خشب الغيطان وأشعل النار. وضع بستلة كبيرة مملوءة بالماء مع نشيش الماء اختلط البخار المتصاعد بدخان السجائر. تدفق نحو رشيدة فى قدومها حاملة طبلية العشاء فراحت تسعل.

بعد أن ملأوا بطونهم عرفه أبو خلف الله على حجرته التى سينام فيها. مع الأيام تعرف الرجل بمفرده على كل خبايا البيت.

وفى صباح أحد الأيام قال الرجل لزوجته بعد أن شعر أنه تماثل للشفاء :

– قومى شوفى العيال

– وأنت

– سأنتظر حتى يحل الظلام وأتبعك.

• • •

خرجت المرأة من دار أبو خلف الله ملفوفة فى ملاءتها. راحت النسوة اللائى يغسلن الملابس والأوانى على شط الترعة ينظرن إليها فى ريبة. تابعن انسحابها الصامت حتى غابت عن

أعينهن فى انحناء الطريق. عدن إلى الغسيل يمصمصن الشفاه. أخذن يستعرضن فى خفوت حوادث السرقة التى وقعت بالقرية منذ أن سكنها أبو خلف الله.

حين بدأ سواد الليل يغالب فلول النهار الهاربة قال الرجل :

- زوجتى راحت تشوف العيال.

لم يرد أبو خلف الله فتابع قائلا :

- تحملتنى كثيرًا .. سأنتظر ثلاثة أيام فقط وأرحل.

- البيت بيتك.

• • •

فى الهزيع الأخير من نفس الليلة راح الرجل يتسلل خلسة من حجرته. نظر فى حجرة أبو خلف الله فوجده يغط فى سبات عميق. رشيدة مستلقية بجانبه تبادله الشهيق والزفير. صعد السلم على أطراف قدميه حتى وصل إلى «السحارة» الخشبية التى تخبئ فيها رشيدة ذهبها. راح يرفع الأوانى الموضوعة فوق السحارة فى هدوء... آنية أفلتت .. وقعت .. رنت فى أذنى «أبو خلف الله» فقفز من رقاده. أصاخ السمع وأيقن أن لصًا بالبيت. تذكر وعورة أولاد الليل وجرائمهم. استعدادهم لافتراس من

يحاول الإمساك بهم. قال : أوقظ صاحبى ليساعدنى. لم يلبث أن تراجع قائلا فى نفسه :

سيعتقد الرجل أننى خائف.. ثم أردف :كما أن الرجل لايزال مريضًا.

فى خروجه من باب الحجرة وجد فأسه إلى جوار الحائط. التقطها. راح يصعد السلم فى هدوء تام. وصل إلى باب الحجرة العلوية المفتوح. دلف إلى الداخل. تقرفص فى مدخله ودقق النظر . بعد برهة تكشفت ملامح شائهة لشبح يقلب فى سحارة رشيدة. وقف أبو خلف الله دون صوت. تقدم على أطرافه. رفع الفأس. صوبه فى منتصف الرأس المدلى فى السحارة. هوى الفأس.. هوى .. هوى .. هوى ليستقر فى مكان الجرح.

الجيزة – مارس ١٩٩٦م

جحر من لحم

(إلى شحاتة عوض)

لم أكن أحسب أبدًا أن النمل سيتخذ من أنفى جحرًا له!..
يروح ويغدو ويتوغل فى عميق اللحم المعبد أمام أرجله الدقيقة.
يجر أشياء بيضاء صغيرة ويهم فى اتجاه فتحة أنفى. أنا الذى
هدنى التعب وقلت أغمض عينى لعلى أستريح قمت فزعا اضرب
بيدى هنا وهناك والنمل يتساقط ويجرى بحثا عن مخبأ جديد.

كنت بالأمس أحمل عليه أطارده فى جنبات، فى يدى صفيحة
الكيروسين. أصب على الشقوق المتناثرة بين مربعات البلاط.
أجلس لأراقب أسراب النمل الآيبة وفى أفواهها فتات طعام.
تشم رائحة الكيروسين فتتفرق هاربة. ألاحقها وأسكب عليها
مرة أخرى. تتململ وتترنح ثم لا تلبث أن تخمد بلا حراك. أقول
لنفسى : انتهت معركة النمل.

تمر ساعات قليلة وألمح خطوطا أخرى من هذه الحشرة
المثابرة. أجرى إلى الحمام وأغمس خرقة بالية فى الماء. أعود
فأمررها فوق الخطوط البنية فتلملم النمل فى طياتها. أرجع إلى

الحوض وأعصر الخرقة عصرا شديدا، شديدا ألقيها فى بطن الحوض وأفتح عليها الصنبور، تدور قتلى النمل فى ثبج الماء المتلاطم برفق ثم تنزلق إلى المواسير. حينئذ أقول لنفسى : ذهب النمل بلا رجعة.

أمسح أرضية الشقة بالماء والكيروسين لكنه يعود بعد ساعات يزركش الأبواب والنوافذ. يصعد ويهبط باحثا عن فتات الخبز وحبات السكر والسمسم. أجرى لأبلل الخرقة. أحيانا أشعل ورق الجرائد وأمرره سريعًا على الخطوط المتحركة فوق الحوائط فتهوى صريعة وتحترق مع الكلمات المحترقة.

نصحنى صديقى أن أضع عظمة كبيرة فى صالة الشقة وقال:

– حين يراها النمل سيتهافت عليها.

– وبعد هذا؟

– تأخذها بآلاف النمل الذى تجمع فوقها إلى الحمام،

ها هى عظام اشتريتها من محل جزارة قريب من بيتى. وقال لى الجزار حين باعها لى :

– اشرب شربتها وضع نخاعها فى أرغفة واملأ بطنك

ابتسمت وقلت : بل هى للنمل.

ودعتنى نظرته المتسائلة لأجد نفسى أرص العظام بجوار الجدار وأجلس بعيدا. ها هى نملة تسير فى اتجاه عظمة. تتسلق حراشيفها.. تتوغل فى عمقها المشدوخ .. تختفى بين ثنايا اللحم الناشب فى جنباتها. دقائق وتظهر .. تسير فى اتجاه معاكس .. تتدحرج إلى الأرض مرة أخرى وتجرى نحو الشقوق. بعد دقائق تعود، ووراءها جيش النمل .. انتظر حتى يقع هذا الجيش الجرار فى مصيدة العظام ثم أخطفها وأجرى إلى الحمام وأنا أردد: هزم النمل .. هزم النمل.

ربما فطن النمل إلى حيلتى فهجر عظامى المطروحة على الأرض تنتظر فرائسها وراح يسعى على الحوائط متجها للمطبخ ليدبر قوته من طعامى الرخيص. اشتريت سمًّا أبيض. نثرته على الجدران وفى الدهاليز المؤدية للشقوق وفوق الحوائط وبين فواصل النوافذ والأبواب. أحكمت غلق كل منافذ الضوء والهواء وتركت شقتى المختنقة برائحة السم ثلاثة أيام. عدت فى مساء اليوم الرابع ومعى طعام العشاء. فتحت الباب، ضغطت على زر الكهرباء فهربت العتمة الحبيسة .. أشرقت اللمبات على جدر

بيضاء تمشى فى تمهل. جثوت لأتفرس ملامح هذا الزحف البطىء فإذا بالنمل الملفوف فى بياض السم يجر قلامة ظفر من خبز نحو مخابئه. دلفت إلى المطبخ لأضع ما معى من طعام ففزعت لهذا المشهد، كل الأطباق مليئة بالكائنات البنية البيضاء. أكواب الشاى والملاعق. الأرغفة الجافة، كيس السكر. بقايا الفاكهة...

أجرى كالمخبول إلى الحمام، أفتح الصنبور وأسد الفتحات المؤدية إلى مواسير الصرف الصحى. تتجمع المياه وتجرى نحو الغرف فتغمر الأشياء أمامها. أوراقى تسبح فى لجاجها كمراكب الصيد الصغيرة، السجادة الوحيدة التى أقتنيها بدت فى منتصف الحجرة كجزيرة كبيرة فى نهر ينساب على مهل. فتحت الباب الخارجى وأغلقت الصنبور فاندفع الماء المسموم بالنمل على السلالم. درجة .. درجة .. درجة .. حتى اختلط الماء بتراب الشارع.

أنا بالماسحة أطرد المياه الحبيسة وأدهس النمل الغريق. أمسح فأدع ورائى بلاطا نظيفًا.

يومان ورأيته يطل من بين شقوق البلاط ... يخرج أسرابًا

متلاحقة لاتبالى بشىء وتمارس طقوسها المعتادة فى وضع النهار.

كنت كلما ذهبت إلى أصدقائى تفرست معالم منازلهم بحثًا عن النمل حين أدخل حماماتهم أطيل النظر فى جدرانها لعلنى ألمح الأسراب البنية تسعى نحو صرصور فارق الحياة أو عنكبوت فقد القدرة على نصب فخاخه الواهية. في أحد هذه الحمامات عييت أن أجد نملة واحدة. أرضيته كانت من القيشانى المصفوف فى إتقان. المصقول الأملس الناعم الذى يملأ العين بروعته. كذلك كانت الحوائط. قلت لنفسى : لن يأتى النمل أبدا إلى هذا المكان النظيف. لابد أن بلاط شقتى المتشقق كأرجل الفلاحين هو الذى أغرى هذه الحشرة لتتخذ من شقتى وطنًا لها. منذ ذلك اليوم رحت أدخر كى أدبر ثمن القيشانى وعزمت على أن أجعل كل أرضية الشقة من هذا البلاط الجميل بعد عامين وفرت ما يكفى لتجهيز الصالة فقط. قلت أبدا بها فلعله يتخندق أسفل بلاطها القديم. ليلة التجهيز طفت بكل دهاليز الصالة. كلما وجدت نملة تجاهد بحثا عن قوتها سخرت منها وقلت لها : غدا سترحلين إلى الأبد. هزأت من عشر نملات

كن يجذبن أنف خنفسة دهسها حذائى الأجرب.

فى البكور كانت الأزاميل تصارع البلاط الرخيص. انكشف الرمل المفروش عن مسارب محفورة ممتدة، مملوءة بشرانق النمل المتخندق وراء أقواته.

قلت للعمال :

– ارفعوا هذا الرمل وافرشوا رملا جديداً.

وبدأ الرفع فراح النمل يفر فباغتته الأيدى اللاهثة وجرفته إلى غياهب الأجولة. وعندما خلت أرضية الصالة من الرمال جثوت لأبحث عن آخر كائن بنى يدب على الأرض. عند مداخل الغرف كان البلاط القديم الرخيص لايزال جاثما ها هى آخر نملة تهرب. اتجهت نحو الباب الخارجى للشقة. فجأة اندست تحت بلاط واختفت فى العميق الأسود. انسكب الرمل الجديد وأخذ العامل يسويه ثم رمى الأسمنت وراحت مربعات القيشانى تتلاحق.

أغلقت الباب وراء آخر عامل غادر شقتى واستدرت لأنعم النظر فى جمال الأرضية الأملس المتناسق. بهرتنى نظافتها وانسيابها فخطفت بطانية من حجرة نومى .. تمددت على

الأرض وأنا أتنفس بارتياح شديد شديد.

في الصباح ذهبت إلى الحمام وسخرت من نملة كانت تصارع المياه المتدفقة إلى الحوض. قلت في نفسي :

– قريبا سيزحف القيشاني إلى هنا ولن يجد هذا النمل اللعين مكانا.

ولما جن الليل تمددت في صالة الشقة بعد أن تجردت من أغلب ملابسي اتقاء للحر الشديد. أخذني النوم إلى قيعانه المليئة بالأحلام والحكايا، حلمت أنني أمتطي جوادا أبيض. أمسك بيدي سيفا طويلاً لامعا. أنادي في الجموع المزدحمة حول عربات الخضار والفاكهة في السوق :

– سأحارب النمل .. سأحارب النمل ..

كان النمل يجري في الشوارع وعلى جدران الحوائط. أخذت أدوسه بأرجل حصاني فيفر إلى الحارات الضيقة. وقلت في زهو:

– هزمت النمل.

ترجلت وسرت شاهراً سيفي وحصاني يتبعني حتى بلغت نهاية السوق. تلفت هناك فإذا بالنمل يتجمع في نوافذ البيوت

ويهطل على رأسى كالسيل العرم. غطى جسدى وجسد الحصان وأطفأ بأجسامه الدقيقة لمعان سيفى. رحت أجرى، أجرى، ماوسعنى وأنا أصرخ : النمل .. النمل .. النمل .. لم يسعفنى أحد وتعبت من الفرار فسقطت على الأرض، قفزت مذعوراً.

فتحت عينى فإذا بالعتامة الرائقة تفرش جنبات الصالة. وإذا بأشياء صغيرة تتلمس طريقها نحو أنفى سابحة على لحم وجهى، جريت نحو زر الكهرباء وضغطت عليه. فرت الظلمة وجل النور الغامر. مددت يدى إلى وجهى. أدخلت أحد أصابعى فى أنفى فإذا بالنمل يتساقط فوق أرضية الصالة القيشانى يجرى لينضم إلى سرب كبير يتحلق حول البطانية. يدب هنا وهناك ثم يعود على مهل ليختفى تحت بلاط الغرف القديم.

المنيل فبراير ١٩٩٧

طقوس السفر

(إلى سيد رشاد بري)

١ - حنين
٢ - عورة
٣ - سفر العصر
٤ - زمانه سافر

حنين

يأتينى المرسال ويقول : أمك مشتاقة وتود أن تراك .. يتركنى وتخلو الحجرة وتجيء. أحدثها وأطيل التبرير وتقول :«أنا زعلانة منك». أبكى وألقى برأسى على صدرها فتطوقنى وتربتنى. تمد يدها وتمسح دموعى الساخنة. تتكلم عن انتظارها فيزداد همى. تحضر الطعام فأزدرده. تعد الشاى وأنا أتمتع بقراءة كتاب، أكلمها وأطبق الأجفان عليها، يداعبنى الكرى وتتسطر الأحلام. ها هى أقدامى تدق الشارع الخالى والليل دامس. تطرق يدى الباب والكلاب مستغرقة فى النباح، ينزلق الرتاج وأراها ترفع هامتها وعيونها حق دم ودمع. فراغ اتساعهما الكبير مملوء بالعتاب، أمد يدى فلا تمد يدها، أقف مخذولا، تعطينى ظهرها، أهب مذعوراً فإذا بالفجر على الأبواب والحجرة تطرد الرطوبة والعفن. أنفض عن كاهلى بقايا النوم الجاثم فى نفسى المرهقة. ألقى بنفسى فوق شوارع الأسفلت وبنايات الأسمنت تحاصرنى. تمنع انطلاق الروح عبر الأفق إلى هناك. أنحشر داخل زحام

الأتوبيس تقترب منى امرأة فى سنها ووقارها. أقوم من فوق الكرسى وأجلسها مكانى. ترمق حقيبتى معلقة فى يدى فتمسكها وتحملها عنى وتقول :

- أتعبتك يابنى ..

فأقول :

- تعبك راحة يا أمى .. يا أمى ..

أطيل الألف والميم والياء وأود لو أرتمى فى أحضانها وأبكى .. أبكى حتى أستريح ..

عين شمس - أغسطس ١٩٩٢م

عورة

حين ركبت القطار. كنت أظن أن معه ثمن تذكرتى. جلست بجواره نتحدث. قال لى حين رأى بائع الشاى :

– لو كانت معى نقود غير ثمن تذكرتى لاشتريت لك كوبا.

هنا أيقنت أننى فى ورطة، بل كارثة. تسللت من جواره ودلفت إلى دورة المياه. لم يكن لحاجة أقضيها بل بحثا عن مكان للاختباء. دخلت وأغلقت الباب خلفى. بحثت عن الرتاج كى أحكمه فلم أجد. أضغط الباب. أتركه فيتبعنى . أعود وأضغط من جديد، أضع ورقة مطبقة كى يستقر بلا جدوى. وقفت خلفه، أسندت ظهرى إليه بشدة. رحت أنظر إلى الحقول التى تمرق والنيل المنساب هناك على مرمى البصر. اخضرار الزرع باهت منطفئ. الماء سراب أدرك أكذوبته، وجيب القلب ساعة إنذار تدق. مرت ساعة وأنا قابع فى مكمنى لا أريم. ظننت أن المحصل قد تجاوزنى، فجأة سمعته يقول :

– هات يا محترم

دفعت القدمين فى الحائط، عضضت على النواجذ وضغطت الباب بكل ما أمتلك من قوة. المحصل يفطن إلى تلك الحيلة فلقد مرت به مرات عديدة. طرق الباب. ضربة قوية، اثنتانِ ثلاثُ، كلمة جارحة، جملة قذرة، سيل شتائم، كفان تدفعان. كتف التصق بالباب وراح يدفع وقدم تساعد. شعرت أن اليدين عشرٌ والجسد أجسازٌ. الجمل أضحت أحاديثَ مختلطةً وتشاوراً. أكتم أنفاسى وأقاوم، لكن الباب لامحالة ينفتح فى بطء. أصابتنى رعدة وتفصد العرق من كل جسمى وأحسست أننى أتبول.. مددت يدى وجررت ياى البنطلون.. اليد الأخرى والأقلام والجذع والرأس ملتصقين يقاومون. انزلق البنطلون لأسفل وتدفق الماء حاراً. دفعت اليد الأخرى لتؤازر، تناثر البول على لباسى، تزايد بأصابعى العشرة أردت منعه. دفع الباب بشدة، وقعت على ظهرى. رفعت بصرى وأنا ملقى ونصفى الأسفل عارٍ تماما، فإذا بعشرة وجوه تنظر إلى فضلا عن المحصل.

بين السرايات – أبريل ١٩٩٣م

سفر العصر

أعشق سفر العصر. أجلس فى ناحية الشمس البرتقالية. أطبع وجهى فى الزجاج وأتابعها وهى تنحدر باستحياء. ينسحب قلبى مع ذبولها المتلاحق. أود لو أقبض عليها فلا ترحل، الفلاحون هناك مبعثرون عبر كل الأمكنة. سراويل بيض ترتفع وتنخفض. أعرف كل الحقول، كم تخضبت الأرجل من طينها، والعين راق لها قشيبها الأخضر. رؤوس دقيقة بارزة وسط أعواد القطن لعيال صغار وحجور مليئة بفتات الخبز. أود لو أرجع معهم، أفرح حين أجد اللطعة على الورق، أرفع يدى عن آخرها ويصرخ صوتى الرفيع.«لطعة بليغة .. على الوش وخالية الغش يا أصيلة..» كانت لنا بليغة وأصيلة. تراكم وجودها يجزل لنا عطاء الخولى، ساعة راحة أو خمسة قروش. غيابها يعنى التهاب الراحتين بالعصا. شعرت بالظمأ حين تذكرت القدور الفخارية المرصوصة على رؤوس البنات وحريق العطش يلهب أجوافنا الصغيرة. تختلس عيوننا النظرات على الجسر لتطمئن لقدومهن.

يأتين فيقف الصف ويوزع الماء فى علبة صفيح. نعب ما فيها ونعترض على صغرها فيقلن :

– اشربوا تانى بعد طلعتين..

والكلمة تعنى أن تبقى الظهور منحنية والرؤوس مدفونة وسط الحطب والبراعم أكثر من ألف متر. الخطوات وئيدة والبحث دائب عن البليغات.

ها هى شجرة الصفصاف الكبيرة حين ينتصف النهار ويحل موعد الراحة. نجلس متجاورين فى دوائر، كل منا يضع ما أحضره من طعام ونأكل معًا. يمر الأتوبيس عليها سريعًا وأنا أتابعها حتى تصبح نقطة سوداء معلقة فى طرف السماء. هذه النخلة يعتصم نبلها فى العين والفؤاد. أقدامى. المخلبية الدقيقة تتابع متسلقة. تغوص بين الليف والجريد حتى أمتطى صهوتها المثمرة تمامًا. اليد ممدودة تحلب البلح، الثمينة لنا والرديئة للغنم. فى مثل هذا الوقت تماما كنا نعود... أقدامنا الحافية تلثم لهب التراب والوجوه يختنق دمها. نظل نجرى حتى نتجمع على أول القرية حيث ظل الحوائط. تبرد الأرجل وتتمهل الخطى وتسلسل العقائر بالغناء .. سالمة يا سلامة .. رحنا وجينا

بالسلامة..

حين بدت مئذنة المسجد بين تلافيف الشجر وعراجين النخل. أيقنت أننا اقتربنا من البلدة، رحت أنزل على أول الطريق وعينى ترقب قدوم أخوتى الصغار. يرفرفون من بعيد وأهازيج الفرحة تسبقهم. طار خبر وصولى إليهم وها هم يلتفون حولى وعيونهم على الحقيبة .. يعرفون ما بها .. سيأكلون ويدخرون البعض للصباح. يملأون به حجورهم وهم ذاهبون إلى حقول القطن فيعطونه للصغار هناك تحت شجرة الصفصاف.

جامعة القاهرة - يونيو ١٩٩٣

زمانه سافر

ألقى برأسى على صدره وأتنهد. أشعر بكيانى ووجودى. تذوب كل أوجاع الغربة بين ذراعية القويّيْن. حشرجات البكاء ورقصات السرور يختلطان فى توازن عجيب. أجد نفسى فى النهاية مستريحًا.

يضمنى والدموع تنهدل فوق تجاعيد وجهه الأسمر ويقول :

- أخرت علينا .

فى البكور يستيقظ، يجعل البيت شعلة نار تدفئ برد البعاد وتنضج قدور الأكل والأمان .. ينهر الصغار ليكفوا عن الصخب فأنا مازلت نائما.

- أخوكم راجع تعبان من السفر ..

يستمر العيال فى شغبهم فيمسك العصا.. يفرون.. قرقعة أقدامهم عند الباب تتسرب إلى موجه النعاس الشاردة فأفتح عينى:

- خليهم يلعبوا ..

- صحوك.

– أنا نمت كفاية..

– قم كل..

والشاى فى كوبه الصاجى له طعم آخر. يحضر كوبًا زجاجيًا لامعًا، لكننى أقول له :

– هاشرب فى الصاج ..

– على كيفك يا حبيبى ..

كلمة حبيبى تنهض لها كل خلايا الحس. يعبر نورها المتألق فى صميم الفؤاد ... أود لو قالها مرة أخرى ... يمنعنى خجلى من طلب ترديدها فأراجعها صدى .... أذوب فيها وأروح .. تلسعنى نار الكوب فأتنبه. أضعه بجانبى وأقبض على الكلمة قبل أن تهرب.

صبيحة السفر يضمنى ويقبل خدي ويذهب للحقل. أجهز حقيبتى وأنطلق .. على الجسر يلتوى العنق. يتابع البهائم الكثيرة هناك على مرمى البصر. ربما هو معهم يسوق البقرة والنعاج ويقول للعيال فى أسى :

– زمانه سافر.

الجيزة – أبو قتادة – يوليو ١٩٩٣م

فانوس

(إلى إسماعيل داخلى)

اشتد بكاء الولد وهرب إلى غسق الشوارع صارخًا :

عاوز فانوس.

كانت الفوانيس حينئذ تتوهج فى أيدي العيال مختلفة الألوان تصنع غلالات مزركشة هنا وهناك تتهادى على صدى أهازيجهم حتى تدنو من دار الولد. تعود للغوص فى قعر الحارات الضيقة ساكبة أفراحها الملونة على بيوت الطمى.

تحايلت أمه حتى أمسكت به وأخذته بين يديها

– اصبر لما والدك يرجع من الشغل.

مكث برهة بجوار الباب لكن الانتظار أوجعه فراح الصراخ يتدفق حثيثا حتى تجمع العيال والكبار على عتبة الدار. ولولت الأم حسرة على دموع ابنها التى تكاد أن تزهق روحه. نهرت العيال الذين يتفرجون عليهما فتفرقوا واجمين.

دقت الطبول من بعيد تعلن بدء زفة المولد. رنين صاجات وصدح أناشيد تداخلت مع طرقات الطبل الصاخبة واحتشد

الناس وازدحم الشارع بالموكب. الشيخ فى المنتصف محمول على أكف مريديه ومحاط بدائرة متمايلة من الذاكرين وزغاريد النساء تتساقط من النوافذ كالمطر هنا وهناك. أمام الدكاكين ترمى الحلوى فى الهواء وتهوى على رؤوس الناس فتتلقفها الأيدى ويدوس الكبار فى لهفتهم أعناق الصغار. تندفع الأرجل لتدهس عظاما ولحمًا فتخرج الاستغاثات من أفواههم التى تكاد أن تلامس التراب ولكن أحدًا لا يسمع.

لما اقترب الموكب من دار الولد خرج يلملم دموعه ونثرها فى وهج الشموع والفوانيس. عادت تسح ساخنة على خديه. جرى ودخل إلى البيت فحطم فى طريقه فرحة أمه التى كانت تراقب الحشد المتراقص وصرخ :

– عاوز فانوس ..

وحين كان الحشد قد توغل راحلاً فى قلب الليل المثقوب بالفوانيس كان الأب يعود عبر متاهات الأزقة التى تمزق بطن القرية وتنتهى إلى خلاء الحقول، فى يمينه حقيبته الجلدية الكالحة مغلقة على فرشاة الدهان وعلب بوية صغيرة مختلفة الألوان. اقترب من الدار يجر رجليه المثقلتين تعبًا ويراجع عبر

دندنات متلاحقة صدى الأهازيج التى يطلقها الموكب فى فضاء البيوت. تناهى إلى سمعه صراخ الولد :

- عاوز فانوس.

طرق الباب الذى أغلقته زوجته لتحبس عار ابنها طرقتين فأتاه صوتها محزونا : حاضر .. حاضر . وفتح الباب على ولد مكتوم فى ركن الصالة القصي، رأسه مدفون بين ركبتيه ونشيجه يغلى، وعلى وجه امرأة مثخن بالغيظ :

- تعال شوف ابنك ..

- ماله ؟

- عاوز فانوس.

وانبرى الولد قائلا :

- زى كل عيال البلد.

راح الرجل يبحث فى قعر جيبه. مشى وجلس بجوار الحائط وكله حزن فليس معه ثمن الفانوس وقرأت زوجته الانكسار فى عينيه. مصمصت شفتيها وقالت فى نفسها :«أنى لعامل بسيط يخرج فى بكور أيام قليلة ليدهن واجهات البيوت فى القرى البعيدة أن يجد ما يزيد على اللقيمات الحاف ورشفات الشاى المر ولفافات

التبغ التى يتوهم مع دوائر دخانها الحلزونية أنه يمتلك العالم».

ربّت الأب كتف ابنه. رفع رأسه من بين فخذيه ومسح الدموع المتأججة على خديه وقتل الوجع المشتعل فى نفسه حين قال له

– سأعمل لك فانوسا..

بحث الرجل عن علبة صفيح قديمة كانت ملقاة فى ركن الدار. لما وجدها قذفها فى طست الماء وغسلها حتى لمع قلبها. فتح الحقيبة وأخرج علب الدهان. يغمس الفرشاة فى الأحمر ويرسم داخلها خطا متماوجًا. ثم الأخضر فالأزرق والأصفر.. لم يترك لونا إلا وأذاق الصفيحة طعمه. دس يده فى جيبه مرة ثانية وأخرج آخر خمسة قروش وقال للولد :

– هات شمع ..

قبض الولد على القطعة المعدنية وراح يسابق السرور ويدوس رداء الليل المفروش من دارهم حتى الدكان. عاد مهرولا، الشمعة فى يده والفرحة فى عينيه . أشعل الرجل الشمعة فذاب نورها فى ثلاثة ووه تحملق فى قعر الصفيحة. سكب وطرات الشمع فى منتصف الصفيحة وثبت الشمعة. ربط العلبة بخيط رفيع قوى. غطاها بورقة بسكويت مصقولة لامعة.. لصق أطراف الورقة بالصمغ. رفع

الفانوس العلبة إلى لهفة الولد فاطمأن. قفز جذلانا ومرق من الباب كالريح متلمّسًا رجع الأناشيد الآتى من البعيد الأسود. مضى فبدت بقعة ضوء متماوجة الألوان تتمايل فى الظلام. تغذو وتروح فتخطف أبصار الذاهبين إلى الموكب من عيال وكبار. ينبعثون فى الليل بحثا عن اليد الفرحة المتراقصة التى تحملها.

كان الموكب قد وصل إلى مدخل القرية وانحنى ممتطيا صهوة الطريق المؤدى إلى عدة بيوت منعزلة تبدو كالزائدة الدودية فى جسد القرية الكبير، وحين ابتعد الحشد عن العمار وجد الناس الفرصة سانحة كى تتمهل الخطى وتستريح الحناجر التى أتبعها صراخ الأناشيد وحرارة الأذكار.. وعيال الفوانيس أخذوا إجازة قصيرة من الجرى والتلويح بالمثلثات الملونة. وفى أتون الموكب المنهك، الخافت الصوت الباهت التلألؤ ثمة ولد صغير يجرى هنا وهناك يصدح بأنشودة عذبة. إشرأبت إليه الأعناق وتلاقت الأبصار على النور المنسكب من يده، المنبعث من فانوس غريب بدا أكثر جمالا من كل فوانيس العيال .

عين شمس – أغسطس ١٩٩٢م

ترحيل

(إلى المهندس أشرف حميدة)

١ - وجه
٢ - تراحيل

وجه

فى مقتبل المراهقة كنا نترك البيوت ونرحل للبحث عن رجولة. نمتطى أسطح القطارات فتلقى بنا فى جوف البلاد. ننتشر عبر الشوارع ويستقرّ بنا الحال فوق المقاهى. نتجاور وعيوننا تلاحق الغادين والرائحين لعل أحدهم يحتاج أنفاراً.

للقصعة رجالها، فيئول إلينا حمل الطوب إلى الأدوار العليا فوق الأكتاف أو ملء جوف الخلاطات بالرمل والأسمنت والزلط. يصطحبنا المهندس أحيانا إلى بيوت متداعية، ننهال على الحوائط بالأزاميل فتنهار. تأتى العربات فنملأها بالأحجار والأتربة تتجلى الأرض فتبدأ الحفر. نفرش الصبة الخرسانية فى قعرها. ننصب هياكل الخشب ويتمدد الحديد ونرى العمائر وهى تنمو فوق أكتافنا شيئا فشيئا.

استوت الأبنية وامتلأت بالناس واستوى جسدى وأصبحت شابا يكاد يفارق الشباب. ها أنا أدور فى الشوارع بحثا عن شقة. خطيبتى تسير بجوارى وقد قتلها الانتظار. نمر على

العيال وهم يحملون الطوب والزلط أسفل عمارة كبيرة. تنظر هى هناك .. تتوقف. تلتقط وجها لولد نحيف. ترفع سبابتها فيمتد ناظرى معها تصيخ الأذن إلى همسها. تقول فى يقين :

– هذا الولد يشبهك .. أليس كذلك ؟

ترجع الإجابة من جوف زمن مضى تلاحق ابتسامتها وتخرج كلمة «صحيح» طويلة ممتدة لاتكاد تنتهى..

السيدة زينب – مايو ١٩٩٤م

تراحيل

أشعر أنى عامل تراحيل. أحمل حقيبتى المملوءة بالكتب فوق كتفى بعدما تمزقت يدها وأسير. أراهم بجلاليبهم المتسخة المرتقة ووجوههم المروضة، خُشُبا مسندة على الحوائط ملقاة فى الميادين حين يتأخر النهار وييأسون من العمل. وقت الظهيرة يتجمعون فى مطعم شعبى رخيص. صاحبه صعيدى أسمر مثلهم. موائد الطعام على الرصيف تتناثر عليها أطباق العدس والفول. يفرغون من الطعام ويلتفتون يسارهم فتتحفهم بائعة الشاى بأكوابها الملتهبة السوداء. يرتشفون ما بداخلها من صبر وعناء وشاى .

أعرف مكانهم حين يقضنى الجوع، أشق طريقى مطمئنا بين صفوف العمارات الشاهقة تزكم أنفى رائحة الشواء فى المطاعم الفاخرة في ميدان «ميت عقبة» التفت لليسار. على مقعد متهالك خلف منضدة خشبية قديمة أجلس معهم. ينظر إلينا من تعريشة الخشب المنصوبة صاحب المطعم بشاربه الكث. يبتسم فيكشف

عن ثناياه السوداء ويقول :

– البيه ياكل عدس برضوا ..

– لا .. النهارده فول .. وزود الطحينة.

– من عينيا ..

أضع الحقيبة بجوار الفؤوس والكواريك والزنابيل. أغمس اللقمة فى جوف الطبق. وأنفض عن كاهلى كبت الحروف. أثرثر وينطلق اللسان. يتحدثون عن قسوة قلوب أصحاب العقارات وريس الأنفار، وأسرد لهم عن صلافة أصحاب دور النشر وتبرم النقاد ..

هذا اليوم من أيام العيد رحلوا لبلادهم وبقيت أنا. انتصف النهار فدبت أقدامى إلى المكان. وقفت فى مواجهته على الجانب الآخر. هيكل المطعم الخشبى صامت متجمد الباحة أمامه يباب. الكراسى والمناضد رفعت. بائعة الشاى غائبة... أتقدم ... أسند ظهرى على الحائط وأمصمص توجعاتى. بقايا الشاى خضبت الأرض، فتافيت من الخبز وحبات عدس وفول، ذرات أسمنت وجير ورمل. صدى أصواتهم يتجدد فى الأذن تجتره وتعيد ترديده. أقول فى تحسر :

- النهارده تعبت قوى فى الشغل

أنتظر أن يسـألونى فـأسـرد وأسرى عن النفس همومـها. لكن أحدًا لا يسـأل ... أتذكر أنهم رحلوا، وأن الموجود فى المكان أنا فقط، فأنخرط في البكاء ..

ميت عقبة - مارس ١٩٩٣م

أنا مصرى

(إلى أخى أحمد)

قطعة من جهنم تطير فى سقف السماء على غير هدى. قمر منقوش يتدلى ويتهادى ويقاوم الريح. يغيب فى عين الشمس ويبين حين يروغ بعيداً عنها. أجرى فى الأرض المحروثة ويتقاطر هناك فى خضار الزرع الممتد رجال كثيرون، جماعات وقراوى يرفعون العصى المشوقة ويهرولون فى اتجاه القمر المزركش .

جاء صوت مخنوق من بعيد يتقطع فى لهاث صاحبه :

– طيارة إسرائيلية..

وخز الإسم قلوب الناس فانفتحت نوافذ الأسى. هاج الثأر المحموم فاندفعت الأرجل تغالب طين الأرض وأحراشها. ارتسمت فى مساحة الفضاء بين الطيارة المحترقة والعيون التى تلاحقها وجوه الذين ضاعوا فى الصحارى، وأولئك الذين تسلم أهلهم أشلاءهم من عربات الجيش الضخمة بعد ١٩٦٧م.

راحت الطائرة تتباعد مخلّفة وراءها سحابة دخان أسود وبعض وهج يحل بذاكرة الذين تابعوها حتى أضحت نقطة

حمراء ترتعش فى المدى. أخذت المظلة المنقوشة التى تقل قائد الطائرة وتبدو كقمر معلق فى بطن الفضاء تراقص الهواء. تقترب حتى تصير فوق رأسى .. ها أنا طفل صغير، أقفز إلى فرع شجرة الرمان وأسلخ عصا رفيعة لبلابة. أجرى وعينى تحلق مع الرجال فى الفضاء. فى جيبى صورة أبى. أعطتها أمى لى ذات ليلة حين طالنى الوعى. قالت وهى تغالب الدموع التى حبستها سنوات الانتظار:

– صورة أبيك

– أبى ..؟

– كنت طفلا صغيراً حين حملك بين ذراعية وضمك إلى صدره وقبلك فى جبينك ثم مضى. ومن يومها لانعرف عنه شيئا.

– أين ؟

– ذهب يحارب إسرائيل.

– مات يا أمى ..؟!

– ربما مات .. ربما يعيش ..

وعيال الناس عيرونى كثيراً وقالوا : أباك ضاع. وقلت ها هى طيارة إسرائيلية وربما أجد أبى قد رجع مع هذا القمر

المنقوش... تطوحه الريح يمينا فنجرى يمينا، تأخذه شمالا فنتبعه كظله، تغالبه وتدفعه فوق النيل، تقاوم اليدان المعلقتان فى حبال القمر فيعود مرة أخرى يحلق فوق الزروع. رويداً .. رويداً راح يتدلى بانحراف تجاه الأرض المحروثة حتى كاد أن يلامسها. امدت مئات الأيدى فتوارى كل جسد الطيار بين مخالب الأذرع المتحفزة وغابة العصى المشوقة. جاء صوته ملهوفًا مستغيثًا

-أنا مصرى .. مصرى .. أنا مصرى ..

تباعد الزحام المتوثب عنه خطوتين وتركه يلملم أشلاءه المبعثرة فوق التراب. وجدت نفسى اندفع وأرتمى فى أحضانه : أبى رجع .. أبى وجع ..

خلعنى الناس من أحضانه وطردونى خارج الزحام. أخذ بعضهم يقلب ويفتش فى الأوراق التى أخرجها الطيار من جيبه وقال بعضهم : مصرى .

رحت أجرى نحو دارنا .. مبهور الأنفاس خائر الصوت صرخت على أمى. كانت ترمى حبات القمح للدجاج فوق السطح. تناهى إلى سمعها ثغائى الرفيع الملهوف

: أبى رجع .. رجع.

فى التو صارت على عتبة الدار وسألتنى أين. أخذتها من يدها وجريت وقلت : هناك فى الأرض المحروثة... خرجنا إلى الخلاء فى الطريق كان الناس يتحدثون عن طيارة لرش المبيدات اشتعلت فوق حقول القطن وعن طيار نجا من النيران وهرب بمظلته.

حين اقتربنا من الزحام كان الطيار يمشى مع الناس واجما. رفعت سبابتى إليه وقلت لأمى : هذا أبى.. رمقته بسرعة. راح وجهها يصفر ويحتقن. مالت نحوى.. أخذتنى بين يديها اعتصرتنى فى حضنها وراح نشيجها المحموم يتصاعد .. يتصاعد حتى صار صراخًا يرتد صداه هناك عند صهوة الجبل التي تعتلى مجرى النهر.

قرية الإسماعيلية – المنيا- يوليو ١٩٩٥م

تضحية

(إلى محمد مكى

و أحمد حافظ)

فلول الظلام المتسربة من بين أصابع الفجر الوليد لم تخف الحقيقة. نبض الكون صرخ بالتضحية، ، فوهات البنادق المتأهبة. الرجال المتلفحون بعباءة الشر. المواجهة المنفردة فى قرية يغط أهلها فى سبات عميق. حقول القصب يسرت حلم الانزواء والفرار، لكنه لم يفر. الخروج على قاطع الطريق جهاد. الموت فى سبيل المال الحلال شهادة ... تقدم وعيناه ذاهبتان إلى مكان واحد.

- مكانك ..

صوت أجش عكر صفو السكون...

لكنه لم يستجب... رجلاه مدفوعتان برحلة الزحف من الحقل إلى الجامعة. قراءاته الواسعة حول تاريخ الصحابة وبطولاتهم جعلته صلب الإرادة قوى الشكيمة .. أناس كثيرون ماتوا من أجل لاشىء، آخرون لغاية حقيرة. أما هو فسيموت شهيداً، سيحشر مع النبيين والصديقين، جميل مضى وجنى ثماره.

مستقبل أخيه الرابض فى بطنها. أشياء كثيرة تجعل التضحية حتمية ولا نقاش ..

– مكانك .. «هاضرب فى المليان»

احتزل الزمن فى خطوة .. تأريخ حياة مر فى طرفه عين. توقف فى لحظة لا تشيخ، ومع أنها مرت منذ تسع سنين إلا أنها بكر فى ذاكرته ولن تضع. لن يحكيها لهم لأنهم لن يسمعوه، لكنها ستفرض كل تفاصيلها فى زمن الخطوة الواحدة... وراحت تترى.

بزغت الشمس من خدرها ذات صباح لتشهد سير أربعة أقدام يسعون فى الكبور، فى مفترق الطرق ودع الشيخ زايد ابنه محمود، سار الأب إلى السوق وأخذ ابنه سمته إلى المدرسة لأداء امتحان الشهادة الابتدائية.. حين نصفت الشمس صفحة السماء عاد كلاهما وأهازيج الفرحة ترقص فى العيون، محمود أنهى امتحانه بتفوق، والأب حقق حلمه الذى كابد كى يصبح حقيقة، جاء حلمه خلفه، بقرة صغيرة بيضاء تسر الناظرين : دخل محمود الحظيرة فالتهب حماسه وسحبها خلفه .. منذ ذلك الحين وهو يستعجل الأيام حتى يكتمل الرجاء ..

تترعرع أعواد البرسيم، تزمجر الآلات فينفصل عن القمح التبن، يجرى ماء الترعة فى أوصالها، تأكل وتشرب وينمو جسدها. ينمو عقل محمود يطوى صفحات الكتب يدشن بمداد قلمه لبنات مستقبله .. ها هى الثانوية العامة على الأبواب، ورغم عبء الدراسة إلا أنه لم يقصر فى خدمتها. شمس الصباح شهدت رحلة أخرى، الابن إلى مدرسته والأب إلى الثور فى قرية مجاورة عند الضحى عادت البقرة تحمل فى أحشائها بذور الأمل، المنتظر انبسطت الأسارير حين جاء الضيف الجديد. لفظ رحمها ثورا صغيرا اكتنز شحما ولحما حين دقت ساعة الجامعة احتفالا بعام دراسى جديد ..

– مكانك ..

ازدادت خطواته اتساعاً. تحولت إلى جرى مجنون للأمام.

ها هم أولاد الجزارين يطرقون الباب. يد الشيخ زايد مملوءة بحفنة الأوراق المالية، راح يعد لمحمود مصروفات إقامته فى القاهرة وثمن مستلزمات كلية الطب .. حشرجة القطار ومدموع طفرت، وبدأت الرحلة.

– قلت لك مكان؛ .. من أنت ؟؟

الرجل يخشى أن يوقظ الرصاص النيام، لكن محمود لا يخشى إلا الله... توحدت القائمة والحائط وبرز اسمه فى قائمة المتفوقين، الفأس يقضم التربة دون توقف، واليد التى تمسك أدوات الجراحة تسبح فى عرق الهجير ينظر ليده راضيا. هذه يد يحبها الله ورسوله. ثم يتبعها «إن الله يحب العبد المحترف..»

تنتصب عيدان الذرة فى شموخ تتدثر التربة ببساط الحشيش الأخضر، البقرة تأكل وتقذف إلى عالمهم مخلوقات جديدة تتسابق أقدام الجزارين. إم لم يكن مع الشيخ زايد أى نقود يستدين ويؤجل الدفع حتى موعد البيع. كل ما يطلبه محمود يصبح رهن إشارته.

– ها ضرب فى المليان ..

شد الأجزاء للخلف، وتسلل إصبعه فوق الزناد .. تدورالأيام، ويسأل محمود نفسه : لولا أن ذهب أبى ذات يوم إلى السوق ..؟ ثم يفيق مستغفراً ربه «ما من دابة إلا وعلى الله رزقها».. ينكب على الورق يلتهم كل صغيرة وكبيرة. وعقب امتحان السنة النهائية اختارته الجامعة معيداً.

– أصبح بينه وبين الذى يمسك برسنها أمتار قليلة. سقطت

حقيبته، كانت تضيق بالهدايا لأسرته، اشتراها من أول مرتب يتقاضاه، لم يفته أن يتشرى لها رسنا من الكتان أكثر لوينه من ألياف النخيل. كيف لا يفعل ذلك ؟! رجل من بنى إسرائيل دخل الجنة فى شربة ماء أعطاها لكلب ظمآن .. امرأة دخلت النار فى هرة حبستها ... هى ليست هذا فقط، بل مكانتها تتفوق بمالها من نفع عظيم، يعى هو ذلك جيدًا.

كما يعى فكرة جديدة وافرة فى ذهنه، تلح عليه، فبعد سنوات قليلة ستصبح البقرة عقيمًا .. فإذا ولدت هذه المرة أنثى تربى لتلد، فإن كان ذكرًا باعوه واشتروا بقرة جديدة .. أخوه حسن سيدخل المرحلة الثانوية فى العام القادم، وتلزمه مصروفات.

وكانت هذه الليلة، حمل حقيبته وفكرته وقفل راجعًا..

– اضرب .. ونطق الرصاص ..

نجوم الفجر تضرحت بالدماء، شربت الأرض حتى الثمالة، صراخ مكتوم انداح فى فراغ لانهائى، قرقعة الأقدام أيقظت الكلاب فاستغرقت فى النباح. صوت الرصاص تسلل إلى أحلام النائمين هبوا مذعورين. امتلأت الشوارع فى لحظة. كالعادة انتشر الرجال كالنمل عبر كل الأماكن ليطاردوا اللصوص الهاربين.

العيون تسربلت بالخوف والدهشة والرجاء. الدموع المنهمرة في صمت، خالطت الدماء المنتشرة حول جسد محمود، يده ماتت على حبل البقرة. حقيبته ملقاه على مقربة منه، البقرة واقفه تلهث كأنها تشارك الناس أحزانهم.

تطوع بعض الرجال ليسدوا الكوة التى صنعها اللصوص فى الحائط، وتطوع الزمن ليعزف على أوتار النسيان.

مع الأيام غار الدمع واستقر خيط الحزن الجاف فى الذاكرة، وذات صباح عادت الدموع تنهمر حين فتح محمد حقيبة أخيه، كتاب ضخم مرسوم عليه بقرة سمينة مكتوب فوق غلافه :«كيف ننهض بتربية الأبقار» وموضوع بجواره حبل الكتان.

فايد - مارس ١٩٩٠

تقاسيم الهوى

(إلى محمود مطر)

١ - حرفان.

٢ - بـتـرا

٣ - أين الحبيبة يا قمر؟

٤ - الولد الصغير.

٥ - الكلمة.

٦ - وجه الحبيبة

٧ - بذرة عشق

٨ - برواز

حرفان

كنت أنام حتى الظهر. أستيقظ فيقفز الحزن من رقاده. أصلى وألتهم لقيمات يقمن الصلب المكدود. أهرب فى وقدة القيلولة إلى الجسور. أهيم فى خضرة الزرع الممتد وأردد أغنية قديمة. باقية هى فى خلجات الفؤاد من زمن لن يعود.

الأرض خواء وسكون، وترديدى ممرور شجى. تطفر الدموع وتروى ظمأ الخد المقدوح. يزعق قطار الثانية فأرفع الرأس هناك فى المدى. أراه ثعبانا يلتوى. يبين ويختفى بين آجام الشجر والنخيل. أود لو كنت فى جوفه أشد الزمن بكل إدرادتى، فأصل إلى تلك الأيام.

أمر على شجرة الجوافة، أنزل أليها فى الوهاد تحت الجسر، أتفرس اللحاء، كنت قد حفرت عليه حرفين منذ سنين. أرى جرح الحروف قد التأم، شىء باهت لا تكاد العين تراه. أبحث عن حطبة مسننة وأعيد تشكيل الحرفين. أعمق الحفر، تنكسر الحطبة فأبحث عن غيرها وأضغط. أنتهى من رسمهما، أصعد

الجسر. أستدير إلى الشجرة. تهمل العين الأغصان والأوراق تستقر على الجذع. أدقق النظر؛ فأرى الحرفين قلبين متعانقين وممتزجين تماماً.

الجيزة – أبو قتادة – أغسطس ١٩٩٣م.

بترا

أسمع تلك الموسيقى تتسلسل من شغاف المذياع فأغيب. أسافر فى الوقت. أتوقف فى لحظة لن تشيخ.أقول لها وأنا أسألها عن موعد السفر.

- ستسافرين ..

أجرجر الكلمة فتطول ولا تنتهى. تهدل برخامة تدغدغنى وتقول بالعربية المكسرة:

- بعد شهرين.

لا يعرف الحب قيود الجغرافيا ولا الأجناس. هذه الأسترالية تربعت وافترشت كل ما فى القلب لامرأة . تقول :

- زميلة أخرى قادمة

أغالب الدموع المتربصة فوق المقل :

- لا أحد يستطيع أن يحتل مكانك يا بترا.

كأوراق الخريف تسقط الأيام متلاحقة، لم يبق سوى سبعة أيام. أدركت أن عمرى المنتفخ بالألم ليس فى ورمه سوى غدة

صحيحة. ساعات هى، بل دقائق ..

عدت على عجل، صعدت السلم جريًا. ثلاث درجات، أربعة فى القفزة الواحدة التفت فى الردهة فواجهنى الباب، كان مغلقا والصمت يلف المكان.. رويدًا .. رويدًا رحت استحث الأقدام لتخطو. رفعت إصبعى وضغطت الجرس. أضغط وهو يفرغ الرنين فى إلحاح. ألصقت أذنى بالباب علنى أسمع سلسلة الموسيقى، حفيف أقدامها وهى قادمة لتفتح لى .. تذكرت أنها رحلت وأن الغرفة خاوية وأن اليوم موعد السفر. رفعت راحتى وانهلت على الباب ضربا وركلاً بأرجلى. استدرت ورحت أجرى. الشوارع باهتة وجوه الناس غريبة غائرة. لا أشعر إلا بأنفاس تلهث، تتلاحق نحو محطة القطار مزقتنى الفجيعة وأنا أرى الرصيف خاويًا إلا من نفر قليلين. قلت لأحدهم وحروفى تتحشرج فلا يكاد يتبينها : هل غادر القطار المحطة؟

رد وهو يمصمص شفتيه :

- سافرت فيه أجمل فتاة رأيتها فى حياتى...

القاهرة - التحرير - يونيو ١٩٩٤م

أين الحبيبة يا قمر ؟

أين الحبيبة يا قمر؟، فى عتامة السحاب المتآمر عليك غموضها المذهل ... تألق ضوئك وجهها الحسن. سكونك وشعاعك المتسرب فى وقار بعض من هدوئها. لكنك لست هى .. فأين الحبيبة يا قمر؟..

تختفى خلف ندف السحاب وتبزغ، هى اختفت فى زحام المدينة ولم تعد، أبحث عنها فى وجوه الناس الرائحين كالنحل إلى أعمالهم فى البكور، الغادين فى وقدة الظهيرة وغبش الليل. أرجع متعبًا، أفتح باب غرفتى وألقى جسدى فوق السرير. تتشكل الصورة فى ظلام الحجرة، تتراقص فوق الحوائط، تقبع وسط الكتب والأوراق على المكتب. تتسلل إلى السطور وتكمن. أنفض الغطاء، أقلب صفحات كراستى المنزوع غلافها فأجدها. أقرؤها وأقرؤها وأكون من بعثرة الكلام حروفها... أرددها وأنا أسير نحو الشرفة. أرفع هامتى فأجدك وأسألك : أين الحبيبة يا قمر؟

حين دخلت القاعة مسحت المدرجات على الفور، فى الركن استقر البصر فهذا كان مكانها. وجدته خاليا رغم ازدحامه بالأجساد المتراصة. تتلاشى الأصوات وتندثر الوجوه، يتبدل الزمن وأرى أصبعها الصغير مرفوعا لتسأل. صوتها الساحر الناعم يغرد ... يهيج خلجات القلب فيدق. الأذن تصيخ السمع، تفتت حروف كلامها لا تعبأ بالتفاصيل والمعانى بل تغرق فى ترانيمها الهادئة الرخيمة.

تنقضى المحاضرة دون قدومها. فأقوم وأجفانى حبلى بالدموع أعبر الشارع دون وعى، أخترق الحارة. تقرقع الأقدام فوق السلالم. أفتح الباب وأستلقى على السرير، الكتب والأوراق وأحرفها تتابع فى لوحة الحائط صورتنا، نتسامر تحت أشجارها وبين ضفتى ورودها، أتوم حين أتذكر أنها لوحة لوحة فقط، أسير نحو الشرفة فأراك وأسألك، أين الحبيبة يا قمر؟

كنت أجلس على المقهى أجتر ذكرياتى المهملة، حين أتى صديقى الصغير ودعانى للذهاب معه إلى الجامعة. رفضت وحلف وأغلظ الأيمان وأمام تشبثه ذهبت معه، مررنا من الباب الخارجى ووقفت أتأمل الساعة، عقرب الدقائق يرتعش ويتقدم

فتصبح السادسة، لحظة خروجى من نفس الباب منذ عشر سنوات. كل المعالم تغيرت حتى الجدران. أقف أمام مجلات الحائط وعينى تراوغ ربما ألمح اسمى بين الأسماء. دخلنا القاعة، رفعت وجهى، حصرت الوجوه فى لحظة واستقر البصر فى مكان قصى، لم تكن موجودة فلم أستطع الانتظار. خرجت، عبرت الشارع، إلى الحارة، إلى سريرى قلت لعل هواء الشرفة وخليط أصوات الناس يسرّى عن النفس ويخلع الكآبة من الحياة. وجدتك أمامى تغالب تكالب السحب عليك وأغالب أنا دموعى المختزنة فى دلتا الأحزان. طبقة الدموع تجزئ الرؤيا وتتشطر أنت وتتفتت دائرتك المضيئة. أمسحها بطرف القميص فتكتمل، ويشق السؤال أجواز الفضاء، والأذن تنتظر الإجابة.

الجيزة – بين السرايات– مايو ١٩٩٣م.

الولد الصغير

أقدامك تنهب الأرض والعرق كاد يطمس ملامحك. العين قلقة تتابع تدفق السيارات من اتجاهات ثلاثة تخترق وتعبر وبصرك يستقر هناك على الجانب الآخر. أتوبيس ضخم معتم الزجاج، تستبعد ما ترى، ترتاب فيه، تتوقف تستبين، وها أنت تحاول أن تركل الأيام بقدميك وتدهس حشايا الذكريات. تأمر فلا تطاوعك الأرجل وتتمرد عليك العينان، تحملق وتراها وتتأكد أنها هى .. هى .. عشر سنوات لم تغير فيها شيئا، نفس التقاسيم الرائعة، الوجه الأليف الحبيب المتسطر فى صميم الفؤاد.

ترفع هامتك وتصوب سهامك إلى شغاف روحها فتتدلى أجفانها فى ارتباك وتحجب الأمل والرجاء. تحاول هى أن تستدير وتعطيك ظهرها. يغالبها الحنين. تلتفت مدفوعة بإرث الماضى البعيد. يتقابل الوجهان. فلا أنت تهاب السيارات التى تمرق بجانبك وتكاد أن تدوس أقدامك ولا هى ترغب فى بقاء الزجاج بينكما.

تنطق بكلمة لا تسمعها أذناك، لكنك تدرك معناها من انفراجة الفم وحركة الشفاه وتعرف أنها «اسمك» يعود إليك كبرياؤك القديم فلا تنطق اسمها تنتظر أن تذيب لهيب شوقها، فيخرج قطرة دمع أو نظرة ساهمة طويلة تتأرجح لها نفسك. تنتظر، لكنها لاتفعل. تترك وجهك معلقا على أكف الرغبة والتمهل وتلتفت إلى الولد الصغير الذى يجلس بجوارها. تراه يلتقف يدها فتدعها له طيعة وتسمع كلمة «ماما» حين يصرخ بها ثغاءً حانيًا يشعل فى قلبك كل ما أخفيته، يطفئ كل ما كنت تتمناه وتعود أقدامك لتنهب الأرض من جديد.

القاهرة – باب اللوق– يوليو ١٩٩٢م

الكلمة

فى اليوم الأخير أردت أن أهمس فى أذنها كلمة تبقى. مكثت بالقرب من باب الكلية. خرجت مع لفيف من زميلاتها فلم أخلص إليها. استوت على الطريق وسط أرجل تتدافع نحو الخارج. راحت عينى الحبلى بالدموع ترصدها وهى تتباعد حتى أضحت غلالة برتقالية تهتز فى المدى.

ألتفت خلفى فأجد الشجرة الشامخة. كم شاطرتني الأحزان!! ها هو الخريف يساقط أوراقها فوق قدمى المتداعيتين. طوقت جذعها. ضغطت براحتى. صرخت فيها «أنا أحبك.. أحبك..» تحولت الوجوه إلىَّ وتشكلت ارتعاشة السخرية فوق الشفاه.. فررت نحو الباب الخارجى للجامعة. ربما ذهبت إلى محطة الأتوبيس.. رحت أجرى .. أجرى .. ألف قدم تجرى فى قدمى .. ألف عين زائغة تراقب وألف قلب يتقافز داخلى. رفعت هامتى. ها هن البنات منثورات على الرصيف حتى النهاية. ربما ذهبت إلى المحطة الخلفية، اتسعت الخطوات.. تتسطح شمس

الأصيل فوق الشارع العريض، برتقالية كفستانها، احتضنت دفئها وقلت الكلمة، تتابعت حروفها تتلمس الشعاع المنساب فوق الأسطح والأسفلت وواجهات البنايات. ها أنا قد أصبحت نقطة ضائعة فى ميدان فسيح تتهافت عليها السيارات من جهات أربع .. حين أصبحت خطًا فاصلاً بين إرادة سائقين كانت العين مصوبة هناك إلى طرف السماء لتطمئن إلى استقرار الكلمة فى قلب البرتقال.

الجيزة – أبو قتادة – يوليو ١٩٩٣م

وجه الحبيبة

هو رئيس القسم الذى تعمل به فتاتى. كنت أحيانا أترك القسم الذى أعمل به فى نفس المؤسسة وأذهب إلى هناك .. أسرى عن النفس همومها وأعب من رحيق الاقتراب ومع هذا لم يعرف الرجل أننى أهواها. ولما تسرب الجفاء إلى رباطنا وأشرفنا على الهجر قمت بنقل عملى إلى طرف المدينة حيث الفرع الآخر للمؤسسة.

تركت باب الهوى مواربًا وأنا أتمنى كل يوم أن تعود الحياة تجرى فى قلبينا، أخذتنى الدنيا فى بحر همومها الذى لا شاطئ له لكننى ما قطعت الأمل يوما. كنت أقول إن رئيس القسم -الذى يبدو أنه يحبنى ويقدرنى ويعاملنى كما لو كنت ابنه- يذكرني دائما أمامها، يعدد مناقبى ومواطن رجولتى وهى تسمع فلا أموت فيها بل أبقى حيا بين ضلوعها، ربما هى التى تسوق الحديث فى اتجاهى وتدع الرجل يستفيض مدْحًا وإِطْراءً وهى تتلذذ بسيرة خليلها الذى هجر. لابد أنها حاولت مرارا أن

تهاتفني... وضعت يدها على السماعة، رفعتها وهى تغالب الوجيب المتفانى فى صدرها. ضغطت على الأرقام... وقبل الرنين أعادتها خجلا ووجلاً. ربما هى التى رددت عليها كثيرا «آلو .. آلو .. آلو..» دون أن أسمع على الجانب الآخر من يجيب ندائى الملهوف... قد تكون سألت عن مكان عملى الجديد وراحت تخطو إليه لكنها تقهقرت وعادت أدراجها متخبطة بين الذهاب والإياب.

استبد بى الشوق وقلت لابد أن أقتل الأسئلة فوجدتنى ذات صباح متجها إلى هناك ...

قبل أن أصل الشارع الذى فيه مؤسسة حبيبتى طالعنى فجأة وجه رئيس القسم. كان قادما من شارع مقابل. تصافح وجهانا وتفرس ملامحى برهة قبل أن يستفيق على ملاصقتى له. قبل أن ينبس ببنت شفة كانت يدى مدفونة فى يده.

تبادلنا التحيات وأنا أكرر السلام وأفصح عن لواعج اشتياقى إليه. فتحت معه باب الحديث عن الماضى، فراحت الذكريات تطل برأس الحبيبة وتحفر فى عينى الرجل تساؤلات وحيرة. لم أسأله عنها وإن كان كلامى يلامسها حتى لا يفتضح

أمرى .. لم يسألنى هو عن سبب زيارتى المفاجئة لكنه حين راح يناديني باسم غير اسمى ويكرر الاسم فى كل مرة وجدت وجه الحبيبة يتباعد .. يتباعد بقدر نسيانه لى .. يتباعد .. حتى يتلاشى هناك فى زحام الشارع المؤدى إلى المؤسسة.

القاهرة - السيدة زينب - نوفمبر ١٩٩٥م.

أقصوصتان للهوى

بذرة عشق

أسكرنى الهوى وولع بها القلب. رحت أنادى ندى صبح اللقاء ليبترد الغليل. أتى الصبح ساخنًا مشمسًا فامتزج لهيبى فى لهب النهار وصرت خيطا من نور ونار يتمدد فى دنيا الناس، هبت رياح العشق عاصفة، فتوهجت جمراتِ الفؤاد، وانصهرت، وأمست رمادًا، لما عاد الفجر يتشكل فى رحم الظلام، جاد نديًّا رطبًا فبلل ذرات الرماد. ساق الريح إليها بذرة لشجرة فيحاء. اخضرت واستوت على الأرض والأيام وصارت دوحة تهب الفرح والظلال. حين انتحرت الشمس على مشانق المغيب تهادى عاشقان. يستندان إلى الجذع ويلتحفان بسترة الأغصان. يلتصقان فيلتهبان .. يعرقان فتتساقط قطرات ساخنة مملحة. تتسربل بذرة حملتها ريح الوداع بالماء المتقاطر من جسد الهوى فتنبت شجرة جديدة.

پرواز

قال لى الأستاذ أحمد : أنت لم تحب قط. أرسلت اليه نظرة بقدر حكايات الهوى التى سردتها عليه، وقلت متعجبًا : كيف.. فقال : كثرة قراءاتك عن الحب جعلتك تصنع بروازًا لعالم وردى دافئ حنون به وجه جميل لفتاة ملهمة، وكلما صادفت إحداهن قلت هى .. هى .. فتحرقْتَ بها شوقًا ونزلت بحرها لكنك لم تتعد الشاطئ فى كل مرة.

ارتحت لتفسيره. صَفَفْتُ كل وجوه البنات اللاتى أحببتهن. أمرتهن بالرحيل .. الرحيل.

خرجت من عنده ببرواز خال من صور العشق.

فى زحام الشوارع المتعرجة راحت أضلاع البرواز تتساقط جزءاً جزءًا تحت أقدام المتجمهرين أمام المخابز، وأبواب الأتوبيسات، والجمعيات الاستهلاكية، ومستشفيات الحكومة. لم يبق منه سوى أطلال ذكرى كلما ألحت حضوراً رميتها فى الزحام.

ذات يوم وفى صفار العصر الكسير راح البرواز يتشكل من جديد. يكتمل فيحوى شعراً كالليل وعينين نجلاوين تتوسطان وجها كالصبح.. تنامت الملامح حتى امتلأ البرواز حسنا. قبضت عليه وجريت إلى الأستاذ أحمد ... البرواز فى قلبى وعينى تراقب الزحام.

الجيزة - المنيب - يناير ١٩٩٦

أطفال

(إلى أشرف الفقى)

١ – حصان المولد
٢ – شجار
٣ – كرة
٤ – عمّى خليل

حصان المولد

حائر أنا. القلق يستبد بى. أجد نفسى تائها متسائلا.. أهم نوع آخر من البشر؟ .. لكن لى وجه كوجوههم.. عين كعيونهم، أنف .. شعر .. أحس مثلما يحسون، أبكن .. أضحك .. أتكلم. كل شيء يمتلكونه أمتلكه .. دماء وعقل وقلب ينبض ..

جاء المولد النبوى. كلما خرجت من بيتنا إلى الشارع أجده، أراه حاملاً بين يديه الحصان الأحمر. يومًا تلو الآخر. ليلة تلو الأخرى تقل أجزاؤه.. تتضاءل، فيوم لا أجد معه رقبة الحصان. فى اليوم الثانى تختفى أرجله. تنشطر بطنه .. ينتفى ..

سألته :

- فين باقى الحصان؟

- كلته ..

أخته تحتفظ بعروستها الحمراء مدة طويلة، تحيك لها ثيابا وتجلس تداعبها وتحملها هنا وهناك . سألتها :

- عروستك ؟

- أيوه ..

- جبتيها منين؟

- أبويا جابهالى ..

- ليه ؟

- علشان المولد.

تجرى هنا وهنك، تنادينى فأتبعها، فى منتصف الطريق أسألها:

- رايحة فين ؟

- عند البقال ..

- ليه؟

- أشترى شمع.

- أنا مبحبش الشمع.

• • •

أحب الشمع. نوره فى غلسة الليل يبهرنى. ناره تلسعنى فتوقظ رغبة مستعرة فى اللعب. أركض إلى البيت. أقف أمام أبى . أرمقه وهو لاهٍ عَنى تمام. أرتمى على ساقيه. يدخل إصبعى فى ثقب جلبابه، تزحف يدى إلى جيبه. تجول فى فراغه،

أقوم حزينا.

أمي .. نعم أمي: ألقى جسدى فيرتطم بها. أهمس فى أذنها، تدفعنى وتصرخ :

- كفاية دلع ..

أصرخ، أبكى بحرقة :

- عايز حصان ..

يهب أبى واقفا، يصعفنى، أتقوقع فى ركن الحجرة.... نشيج وعويل يرتفع فيلاحقنى بعصاه.... أفر، وأمى تسترضيه.... أبتعد، يفلت منها.... أجرى فيتبعنى... أمر عليهما... شمعتها مشتعلة... وحصانه يرقد فى أحضانه.

قرية الإسماعيلية - محافظة المنيا - نوفمبر ١٩٨٩م

شجار

- ياولد - أنت يا ولد، إرجع. إرجع عنه.

صرخت بأعلى صوتى من الجانب الآخر، السيارات تتدفق وتحجزنى عنهما. طفلان صغيران يتشاجران. أحدهما يلوى ذراع الآخر. يضربه بقبضه يده. الولد المغلوب يمسك حذاءه البالى فى يده اليسرى ويصرخ، الآخر لا يتوقف عن الكلمات، عبرت الطريق إليهما وأوقفت التلاحم. أمسكت بالولد الغالب أحاسبه :

- لِمَ تضربه ؟

- شقى...

- أخوك؟

- صاحبى.

- صاحبك وتضربه ..

- بيلعب تحت سلم العمارة.

- يلعب على راحته، وأنت مالك..

رمقنى فى تمهل ورفع رأسه الدقيق لأعلى. رأيت فى عينيه الطازجتين أسفاً مريراً. قال بصوت حزين مخنوق :

- الرجل يطرد أبويا ..

- من ؟

- صاحب العمارة.

- ليه؟

- أبويا بواب العمار والرجل قال إن صاحبى وسخ المكان.. يرضيك قطع عيشنا.

- قطع عيشكم؟!..

أو مأت بالرفض. طويت الجريدة المفتوحة على صفحة الوظائف الخالية منذ الأمس. رحت أنفض القش من على جسد الولد .. وصاحبه أخذ يلبسه الحذاء.

الجيزة - ميت عقبة - نوفمبر ١٩٩٢م


كرة

أدركت فجأة أننى قد عبرت شيئا يستحق الاهتمام. توقفت وتقهقرت إليه. استدرت فرأيته، كان وجها ممروضا لطفل صغير، مطبوعًا بالنافذة، يبرز الفم والأنف من بين الأسياخ الحديدية وتهطل الدموع حارقة. كفكفت دموعه وتفرست فى المكان. حجرة صغيرة موصدة، على جانبها سرير متهالك، شعاع العصر الكسير ينفذ من فرج متناثرة بين السطح والحائط. ينسكب فيكشف عورات ملابس معلقة على الجدر. ثقوب ووسخ وألوان كالحة باهتة. حصير بالٍ تشرب القذارة حتى اطمأن لالتصاقه الدائم بالأرض .. أرغفة جافة مكومة فوق صندوق خشبى. براد صدئ يجاوره كوب من البلاستيك .. عدت أتفرسه وقلت له :

- بتبكى ليه يا حبيبى..

- أمى اتأخرت

- فين ..

- فى الشغل .

- أمك شغالة..

- بتبيع خضار.

- وإنت عايز إيه ..

- عايز ألعب مع العيال ..

• • •

كانوا هناك يتراكلون كرة جلدية بحجم البرتقالة، تشوطها الأقدام الحافية تصطدم بالحوائط وترد. عراك وتلاحم خلفها. صراخ أهازيجهم يصل إلى سمعه فتفلت الدموع. يطبع وجهه أكثر، يشرد منى ويتابعها وهى تنحرف، يرتمي ولد ولا يلحق بها، يبدأ التهليل وتشتعل حرقته أمامى.

قذفوها فارتفعت فى الفضاء وأتت مسرعة تهوى، ارتطمت بكتفى انزلقت إلى داخل الحجرة. التقفها الولد وراحت الابتسامة تتشكل على صفحة وجهه. العيال جاءوا والتفوا حولى. تراجع الولد وهو يحتضن الكرة يضغط عليها، راح العيال ينادونه ليعطيها لهم. لم يعرهم أى اهتمام، رمى الكرة على الأرض وأخذ يشوطها. تصطدم بالأوانى وتستقر فيلاحقها.

يجرى يمينا ويسارًا كأنه شكل من نفسه فريقين. ينادى على أشخاص غير موجودين، يصفق ويصرخ .. جول .. جول . يحتضن الهواء مغتبطًا ثم يعود ليلاحقها من جديد.

الجيزة - المهندسين - فبراير ١٩٩٣م

عمّي خليل

كان يوما عصيبا. جاءوا بعمّى خليل فى دوار العمدة. وقف مصفر الوجه، يرتعش، العرق والدموع يمتزجان فى تجاعيد الوجه فيلمع فى صهدة الشمس. الناس ينظرون من ثقوب الأبواب والحوائط. نحن الصغار تسلقناالسور، صراخ زوجة عم خليل ينداح فى شوارع القرية. يرتد صداه فى أذن الرجل فيزداد الدمع جريانا. يرفع قدميه الحافيتين من لهب التراب ويدس وجهه فى كفيه. بعد دقائق أتت عربة الشرطة «الچيب» نزل منها الضباط والعساكر رآهم العمدة فأقبل مهرولاً نحوهم. اتجه الجميع إلى عم خليل.

تفحصه كبير الضباط وقال له :

– أين البندقية يا خليل ؟

– خطفوها الحرامية ..

– حرامية يا روح أمك .. وطبع قساوته فوق وجهه صفعة كادت تطرحه أرضا..

عمى خليل حبيبنا نحن الصغار . نصاحبه حتى السحر. هو الخفير الوحيد الذى يسهر ويطارد اللصوص، حين يجن الليل يشعل أمامه أزاهير اللهب فى الشتاء. نجلس حوله نتسامر على نواصى الشوارع. لا يبخل علينا برشفات الشاى فى قعر كوبه الصاجى. لم ينجب، فكنا جميعا أولاده. يربت أكتافنا ويحكى لنا عن «أبى زيد الهلالى» و «الزير سالم» فتنبت بين جوانحنا البطولة : نسأله:

– لماذا لا تنام مثل غيرك من الخفر؟

– الواحد لازم يحلل لقمة عيشه.

ها هو عمى خليل يقف أمامنا شبه عارٍ. جموده العسكر من ملابسه. ألصقوه بشجرة النبق المنتصبة فى وسط الدوار. أتوا بحبل من ليف النخيل وربطوه. رأينا التحدى يقفز فى عينى عمى خليل فيصرخ فيهم :

– أنا كنت طوال الليالى أحاربهم وأنتم كل واحد فيكم نايم فى حضن مرته.

نهره الضابط :

– اخرس يا كلب..

: ما كلب إلا أنت وعساكرك

ولما رأينا السياط تنهال عليه وهو جلد يقاوم تحفزنا. حجورنا مليئة بالحجارة، أجسادنا مخندقة خلف السور. أيدينا أقواس تمطر سهام الحصى كالرصاص من كل جانب.

الجيزة – بين السرايات – أكتوبر ١٩٩٣م

عرب العطيات

إلى رفعت الزهرى

ثوران يجران المحراث فيجرف التربة. رجل نحيف معلق وراءه يحكم قبضتيه على المقود. يسيرون معا فتنفلق الأرض فجاجًا.

تكشر الشمس عن أنيابها فتلتهب الأرض. تلسع رجليه الحافيتين فيجرى نحو الشجر المصطف فوق الجسر. يفك صرة الأكل ويفردها عن جبن قديم وخبز جاف ويأكل. بجواره قلة الماء وبراد الشاى. يحطم قطعتين كبيرتين من الطوب ويوازيهما. بينهما يهشم حطبا يابسا يشعل النار ويضع البراد. يبتلع وجع الغربة فى الرشفات المتمهلة من كوب صاجى ملتهب. من جيب كبير فى جلبابه يخرج علبة الكيف، دخان معتق وورق يكاد يذوب فى يده. يصنع لفافة ويتصاعد الدخان حلزونيا ليذوب فى الهواء المسافر إلى نجع «عرب العطيات» القريب منه. يخمد فوران الشمس على أعتاب العصارى فينهض الرجل إلى المحراث.

تمر الأيام تباعا. فدادين الأرض المحروثة تتسع وتبرح فى

نفس الرجل مساحات الغربة، ترتسم فى قلبه نخلات طويلات تظلل حزما من بيوت الطمى فى قرية بعيدة ... بعيدة. هناك الزوجة والعيال وحكايا السمر التى تتحدى نعاس الليل على مصطبة «أبو نعمان» أو فوق جذع النخلة الملقى على ناصية الشارع المؤدى إلى المسجد.. هناك الحجرة الضيقة المتداعية المغلقة على أكثر من عشرين رجلا يلعبون «الدومينو» تحت مشارف الفجر .. وهناك يبزغ الصبح الرائق على أقدام تسعى فى جد إلى الكدح ..

تتدحرج الشمس على صفحة السماء... ربما هى هناك الآن لا تزال تملأ الدنيا نورا وبهجة. تسكب نضارها على وجوه العيال. ربما هم يتصفحون الكتب فى عجالة قبل حلول الظلام وقبل إشعال لمبات الكيروسين التى تأكل عيونهم. الزوجة الآن تعيد الدجاج والحمام والبط إلى البنانى المرصوصة فوق سطح الدار. هديل وقرقرة لا تلبث أن تصمت حين تغلق الأبواب فتسودّ الدنيا. يغلق العيال الكتب ويتحلقون حول أمهم، ربما تقول لهم الآن : «أبوكم تأخر هذه المرة»

أنا هنا أحارب الأرض القاحلة. كلما حرثت أرضًا طلب

الناس منى أن أحرث غيرها. ألملم قروشهم فى جيبى فأتقوى على الغياب. أضرب الليل فى النهار فتستدير أيامى. يبحر شراع الليل فأفترش حصيرة أعطاها لى أحد أصحاب الأرض وأسحب على جسدى المنهك بطانية أعطاها لى آخر، وأنبعث فى الليل بساتا.

فى البرزخ بين النعاس واليقظة ترتسم على جدار حجرتى المستعارة نخلات فى بلدة بعيدة، ناس يقهقهون على مصطبة عريضة، ثغاء الماعز تحت شجرة الجميز يغالب السكون المطبق فوق رأسى. تتلاشى الصورة رويداً رويداً ويخفت الصوت الرفيع لتأتى وجوه دقيقة لعيال صغار يحملقون فى عينى امرأة تسكبان الدمع الغزير فى الأرض القاحلة فتبتل وتصير لينة أمام المحراث.

القاهرة - لاظوغلى - سبتمبر ١٩٩٦م

أوجاع

(إلى ياسر عبد العزيز)

١ - المشهد الأليم
٢ - لقمة
٣ - خبر
٤ - الحجرة
٥ - وطن
٦ - صور
٧ - ليمون

المشهد الأليم

فار الدم فى رأس حين رأيت المشهد الأليم. كنت عائداً من البيت راكباً حمارنا، معى صرة الأكل وقلة الماء وعلبة دخان وشاى. رأيته مخنوقاً يرفرف جسده النحيل يرتعش رعشات النهاية. كفاه تبحثان عن مكان فى جسد خصمه حتى يجبره على تركه دون جدوى. الخصم شاب قوى البنيان والأب أكل الزمن والعيال لحمه وها هو يترنح فى يده كعود البوص الجاف .. صرخت بكل ما أسعفنى به صوتى الرفيع :

– سيب أبويا يا ابن الكلب ..

رأيته وهو يجذب أبى ويكبه على وجهه حتى يلامس التراب ويقول فى عنجهية :

– الطوب والحشيش الوحش اللى رميته فى غيطى هترفعه بأسنانك ..

الأب مسكين طيع فى يده. جلبابه عن رقبته وسرواله الممزق يظهر عورته وطاقيته فى مؤخرة رأسه تكاد تسقط. إحدى قدميه

حافية والأخرى مدسوسة فى حذائه الأجرب. قفزت من فوق الحمار وجريت نحوهما، كان صوت الأب يأتى حبيسًا متقطعًا:-

- هـا مو.. و ...ت ..

وثبت على ظهره وراحت أظافرى تخمشه بضراوة. انزلقت لأسفل وغرست نواجزى فى مؤخرته. رفسنى بقدمه فطرحنى بعيدًا. عدت أقاومه فلكزنى بكوعه فى وجهى. راح الدم يتدفق من فمى وأنفى بغزارة. اهتديت لحجر كبير ورميته نحوه، لم يصل. حجر صغير انزلق على جسده ولم يفلح حتى فى إخراج آهة منه... جريت كالمسعور أبحث عن شىء. تذكرت فأسى الصغير الذى أجاهد به جوار أبى، أحضرته وهجمت عليه. لما رآنى دفع أبى على ظهره يلهث ويعافر. التفت نحوى وكان الفأس فى الطريق إلى وجهه. التقف منتصف الهراوة وغلبنى. ركلنى بساقه فتكومت. رفع رجله وطيحها فوق عنقى وراح يضغط .. يضغط..

بيما أنا فى برزخ بين الموت والحياة. العين يكاد يفارقها الشوق والعنق يجرف التراب ليستدير والفم يئن ويستجير، لحته. كان الأب يجرى نحونا ويزأر كأنه عاد شابا هصوراً.

يداه مرفوعتان تحزمان عصًا غليظة.. غليظة. رأيتها ترتفع وسمعت طرقة قوية انزاح لها القدم الجاثم فوق عنقى، استدرت فإذا بالأب يمتطى صدر الخصم ويوجعه ضربًا.

القاهرة – عين شمس – أغسطس ١٩٩٢م

لقمة

الوقت ظهر والشمس سيف مسلط على الرؤوس. الشارع واسع والسيارات تمرق. القلب مفعم بشظف العيش وقيظ الطريق. أقدام تنهب، ورأس يفكر فيما سيقوله للمدير، وأى عقاب سيلقاه، يفزع المدير مناديًا، تقفز لقمة العيش فى روحه فيجرى إليه :

- أمرك يا بيه ..

وقال له اذهب إلى مديرية الأمن واسأل عن تراخيص السلاح وتعالَ على الفور. ذهب وها هو يعود. فى الطريق وجده. كان جالسا بجوار سور خرسانى قرب ميدان «الفلكى» ثيابه مهترئة. جسده عليه كل قذارة الدنيا، أصابعه الغليظة مفرودة عن آخرها. كفاه مطبوعتان فوق كومة صغير من التراب. يرفع اليد اليمنى ويلقف رغيفا من بين فخذيه. يمزع لقمة، يغمسها فى التراب ويبتلع. يقهقه ويأكل.

جاء ووقف بجواره وراح يتأمله.. رخصة السلاح مدلاة من

جيبه .. طرفها ناصع وسط سواد بنطلونه ... منذ أيام سأل المدير :

– لماذا تريد أن ترخص سلاحًا؟

– خوفًا من اللصوص والجوعى ..

أطال الوقوف فتنبه له. رفع رأسه ورمقه بعينين حائرتين :

– أتأكل التراب؟

أجابة بضحكة بلهاء وعاد يأكل ..

– قم أشتر لك طعاما ..

هذه المرة لم يضحك. صمت برهة فأصابه التوجس. انتفض واقفا وعاد يضحك. فى سرعة شديدة خطف الورقة من جيبه. أمسك يديه.

انهال عليه ضربا .. صرخ فى وجهه بكل ما سيلقاه من عقاب. لكنه كان قد كورها داخل يده ثم ألقاها فى جوفه وراح يلوكها ويضحك.

القاهرة – باب الخلق – أغسطس ١٩٩٢م

خبر

نفس الخبر. ها هو يقرأه بين سطور صحيفة قديمة. هى واحدة فى أرشيف كبير يضم عشرات الآلاف من مثيلاتها. القتلى خمسة .. والمصابون سبعة .. وسطران يصفان المعركة بأنها حامية وتعود إلى منافسة شطرى بلدة واحدة على منصب العمدة. تفرس الكلمات وغاص بين حروفها فإذا بالسطور مسارب بين الحقول تلتوى أمام بصر زائغ لطفل صغير. قدمان تنهبان الأرض بحثا عن مخبأ. حقول القصب تتراص وترمى عتامتها، الطريق الضيق المؤدى إلى أول الهروب. كان الرصاص الطائش يمرق هنا وهناك فتتوزع الصرخات فى الجهات الأربع. تنشط الكلاب بحثا عن طعام رخيص بين أعواد القصب. جرى الولد فى اتجاه بلدته فإذا بغيمة من الرجال تلبد المدى. عصى مرفوعة ورصاص يفرقع. عاد يجرى فى الاتجاه الآخر فإذا بغيمة أخرى وفرقعات. أخذ طرف ثوبه فى أسنانه وتوغل فى زراعات القصب بعيداً . بعيداً. حين اطمأن إلى أنه مخبأ بين

أدغـال الأوراق الخـضـراء المسـتطيلة وملفـوف بسـواد الظلال الكثـيف جلس يلتـقط أنفـاسـه المبـهـورة. رويداً .. رويداً .. راح الشهيق والزفير يخبوان فتناهت إلى سمعه أنات متقطعة :

«آه .. مـجـروح .. عـاوز أشـرب .. أشـرا ا ا اب .. آه .. آه .. آه ...

انخلع الولد من مكانه وأخذ يهرول. لكن الجريح كان بجانبه دون أن يراه، تعثر فى جثته ووقع عليه غاصت رجلاه ويداه فى لحم ودم، غـاب عن وعـيـه وتدفق البـول حـاراً. انسـاب إلى فم الجـريح فـراح يرتشـف منه قطرات وهـو يرتعش بشـدة إيذانا بالرحيل ...

ها هو يقرأ الخبر فى صفحة الحوادث ويسجل بعد عشرين عاما على هامش دفتره أن المحرر أخطأ فى تقدير عدد القتلى. لقد كان هناك شخص فى أعماق القصب ولم يحسب حتى فى عداد المفقودين. وكلاب القرية تشـهد معه على أن الخبر جانبه الصواب.

القاهرة – التحرير – مايو ١٩٩٦م.

الهُجرة

استوت أقدامى على أول الشارع. رفعت هامتى إلى هناك حيث النافذة. رأيتها معتمة فترنح القلب. شعرت أن روحى تنسحب منى قانطة مستجيرة. مددت يدى أحصى القروش الرابضة فى قعر الحبيب. وقفت أمام البيت وقلت ربما رجع ونام، لكن النافذة كانت مفتوحة على نفس الهيئة التى تركتها عليها فى الصباح. قلت : ربما كان مجهداً فاستلقى ولم يمسها. رحت أصعد السلم فى تمهل متوجس. أرفع الأقدام وأمنى الجسد المرهق بأنه سيستريح.

استدرت فرأيت القفل مطبوعًا على الباب، نزلت حانقًا والغضب يطفح من عينى أرى صورتى المتهجمة فى وجوه الناظرين إلى فى استغراب. يحتضن المقهى ثورتى المتأججة، تتسرب رويداً .. رويداً .. فى الرشف المتباعد البطىء من كوب الشاى. تتراكم الثوانى فى دقائق، الدقائق فى ساعات. النقود لاتكفى لأطلب كوبًا آخر. رأيت السخط والتململ فى نظرات

النادل إلىّ فى رواحه وغدوه. أفرغت فى يديه أغلب ما معى من قروش وقمت أسير. رأيت النافذة على نفس هيئتها فوقعت محتارًا... أين أذهب؟ . الجوع أمضنى وهواء الليل البارد يصفع صبرى. انتهيت إلى المحطة، تنتقل العين بين أبواب الأتوبيسات الآيبة. أتفحص الرؤوس التى ترتفع بلا جدوى، جلست مكانى والقلق يحرق نفسى. ساعات مرت وأنا قابع فى مكانى لا أبرحه فى شرودى الذى طال، رأيت مع الزحام جسدًا يهم فى سيره، يغطس ويبين، قلت : هو .. هو، جريت خلفه أنادى :

– محمود .. محمود

فجأة تذكرت أن الذى يمشى هناك يرتدى قميصًا أبيض، ومحمود خرج فى الصباح بقميصه الأزرق ... لكن مضيت أجرى خلفه وأنادى فى إلحاح شديد .. شديد.

الجيزة – أبو قتادة – سبتمبر ١٩٩٣م

وطن

فى باكورة الشباب وذات صباح ندى عاهدت الوطن أن أحرره من قيد الغاصبين وانفخ فى أوصاله من مخزون ولائى فيشتد عوده. تراءت أمامى وقتها صور لفلاحى الغيطان تحت لهيب الهجير. عمال المصانع بين أحضان التروس. عيون المثقفين التى أكلها الورق وأجهدها الانتظار. الشبان المأخوذون من صحون المساجد ومحاريب المدارس إلى غياهب السجون. نساء البيوت الحبيسات فى جدران غشم الأزواج و .... و......

راح الشباب يتداعى وجاء خريف المشيب بانكساره وتهالكه ولاح الموت فى الأفق. ذات صباح كنت أسير فى الميدان الفسيح المطل على المقاهى التى شهدت ساعات غضبنا. نظرت هناك وهنا... عشرون شرطيا يقذفون أمامهم شابا نحيلا. الباعة الجائلون يهربون بعرباتهم الصغيرة وأقفاصهم إلى جوف الأزقة ويتنادون فزعا من «البلدية». امرأة متشحة بالسواد والعفاف تسأل الناس على قارعة الطريق. فلاح ملفوف فى جلباب ممزق

يسـرع الخطى فى اتجـاه مـحطة القطار. أبراج تعـانق الفـضـاء على أول الميـدان وتجثو فى آخره على بنايات متـداعيـة. تتلاقى جدرانها على أجساد أوجعها الكدح ونفوس مزقتها المفارقة .. لمحت عينى فتى يافعًا قادما من الشـارع الجانبى.. يهرول نحـو قلب الميـدان. فى يده كـتـاب، شـعـره يهـفـهف فى النسمـات التى وهبـتـهـا السـمـاء للناس. كنت ذاهبـا إلى الشـارع الذى هَلَّ منه. التقينا منذ أول نقطة فى جانب الميدان. رحت أتابعه وهو يغوص فى الزحـام مخلفا وراءه جملته المخنوقة بالدمع : «غدا سنحررك يا وطن».

القاهرة – باب اللوق – إبريل ١٩٩٦م

صور

أ- شدو

قطعة حديد أسطوانية ترن فى سقف الأتوبيس. قعر العصا يدق فوق الأرضية. بين الأرضية والسقف جسد منهك نحيف يحمل فمًا يغرد لرجل كفيف صعد من ميدان الجيش وحشر نفسه فى الزحام. راح يتوغل وينشد بصوت شجى «ألف صلاة عليك يا محمد : نبى عربى جاء بالبرهان».. رويدًا .. رويدًا.. أخذ اللغط يخفت وكل العيون صوبت نحوه. قطعة الحديد دف والعصا طبلة تدق وتتابع إيقاعاتهاوالصوت ناى حزين أثار فى القلوب الشجن. يتقدم ويقود الناس يفسحون له مسارًا بين الأجساد المتلاحمة ويدسون فى يده النقود. راح ينزل من الباب الخلفى ويتعسس الطريق إلى أتوبيس آخر.

ب - سوق

جلباب طويل مهترئ، داخله رجل قمحى اللون. عمامة صفراء قديمة ينز من تحتها عرق غزير، يتقاطر فوق لحية كثة تنسدل من وجه مثلثى غائر. فوق ذراعى الرجل يجثم طفل صغير . يتشبث بصدره. يرسلان عيونهما عبر ميدان فسيح السيارات والضوضاء وهواء تلوث، لافتة مكتوب عليها «كنتاكى» وأخرى «مكتب استيراد وتصدير»، فى الجهة الأخرى باعة افترشوا الأرصفة، أطفال يحملون «كراتين» البضائع، يقذفون أنفسهم داخل الأتوبيسات.

الناس يمرون وأقدامهم تسابق الأيام، لم يفكر أحدهم لحظة فى فض نزا ع بين شابين مشتبكين فى عراك محتدم. وكزات ولكمات .. شتائم تخدش الحياء، يرتفع الصوت فيضيع صوت الرجل الأجش يشحذ همة حنجرته ويصرخ :

– ابنى للبيع ... بعشرين ألف يابيه ...

ج - سيارة

كان يقف في محطة الأتوبيس وقد أسند ظهره على سيارة فارهة تقف بجوار الرصيف. وجهه مدفون بين دفتي كتاب. رفع رأسه فوجدها تنظر إليه، تكاد تلتهمه. أعاده الحياء. إلى السطور .. دفعه الفضول إلى النظر كانت تبتسم له. أدارت كل جسدها ناحيته وأخذت تتلوى في إغراء.

حين أتى صاحب السيارة، ربت كتفه بلطف، تنبه فتنحى جانبًا، قادها الرجل ومضى مسرعًا. تابعه حتى غاب في الزحام. عاد ينظر إليها فوجدها قد أعطته ظهرها.

القاهرة - باب الشعرية - نوفمبر ١٩٩٢م

ليمون

حين يخالط الندى ورق الليمون يملأ سلته الكبيرة. يعبر النهر حيث القرى المزدحمة على الشاطئ الشرقى. تلقى به الشوارع إلى جوف الحارات فتقذفه إلى النواصى المتتابعة. يطالع الأبواب والشرفات المتراصة وينادى بصوت شجى

- صابح ياليمون.

تخرج النسوة الباقيات فى ضحى البيوت. يدفعن بعض ما لديهن من نقود ويعدن وفى أيديهن الليمون وعلى وجوههن أثار النكات التى وزعها الرجل مع ليمونه.

يترنح النهار فيحصى القروش التى فى جيبه ويعود. كل يوم يحسب حساب مواعيد المركب فيغادر القرى بعد العصر. اليوم تأخر قليلاً والطيب عبد الموجود صاحب المركب لم ينتظر. كانت الشمس تلملم نضارها من فوق الحوائط والزروع حين سلمته القرى إلى الجسر. رفع هامته إلى عرض النهر فإذا بالمركب تمخر عباب الماء إلى الشاطئ الغربى. أطلق ساقيه النحيلتين

للريح وراح يصرخ بحرقة :

- عدينى يا طيب ..

يجرى وينادى .. يتقافز الليمون داخل السلة. يعبر فوق يده المعروقة ويتناثر على التراب هنا وهناك يلقى به الجسر إلى الشاطئ وصراخه يتوالى لكن الطيب لا يسمعه.

يتباعد الشراع الأبيض ويتضاءل الأمل فى الرجوع. يتفحم الشفق ويفرش الليل الوليد عتامته الرائقة فوق صفحة الماء فيضيع المركب فى الغبش.

يتمهل الصراخ. تخبو ناره ويصير أنات متقطعة ويكاد يموت تماما. وحين يتذكر الرجل أولاده الصغار الذين ينتظرون مامعه من خبز وحلوى يتجدد صراخه :

- عدينى يا طيب ..

يلاحقه الصدى من جوف البعيد الأسود.. «ياطيب .. يا طيب .. ياط......».

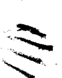
الجيزة - المنيب - سبتمبر ١٩٩٥م

المحتوى

صدر من هذه السلسلة

الأعمال القادمة





رقم الإيداع : ٩٨/٣٣٧٠

شركة الأمل للطباعة والنشر

ت : ٣٩٠٤٠٩٦